دولة التتار

الشروق والغروب

هشام محمد

دار مشارق

دولة التتار
الشروق والغروب

تأليف

هشام محمد

الناشر

دار مشارق

بطاقة فهرسة

فهرسه دار الكتب الوثائق القومية

دوله التتار : الشروق والغروب- هشام محمد - القاهرة : دار مشارق للنشر والتوزيع ٢٠٠٧

ص ، ١٧ × ٢٤سم

١ - المغول والتتار

أ - العنوان:

رقم الإيداع: ١٢٦٧٠٨/ ٢٠٠٧

٩٥٠,٢

دار طيبة للطباعة - الجيزة

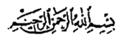
الطبعة الأولى ٢٠٠٨

دار مشارق للنشر والتوزيع

١٥ شارع الفاروق عمر بن الخطاب - طالبية - فيصل

ت: ٣٧٢٤١٨٠٣ - ٠١٢٦٨٧٢٩٠٦ - ٠١٠٥٥٩٣٣١٧

إيميل: mshareq@hotmail.com



مقدمة

برزت دولة التتار بصورة مفاجئة كنبت شيطانى نما وترعرع على الظلم والدم والاستحلال حتى أن العالم قد تضرع إلى الله يدعو بظهر الغيب زوال هؤلاء الأبالسة الذين ملئوا الأرض بالدمع وأغرقوها بالدم.

لم يكن المغول والتتار على سوى شرذمة من الأجلاف الغلاظ الذين لا يجيدون سوى القتال والدمار والتزبب فلم تكن هذه القبائل ذات حضارة عميقة وجذور تاريخية بل كانت مجرد ظاهرة ألقت بظلالها الكئيبة على العالم وسرعان ما تبخرت واندثرت معالمها ككابوس مفزع.

لكن هذه الظاهرة التى ظلت جاثمة على أنفاس العالم مئات السنين قصة ينبغى أن تروى على مسامع الأجيال لعلها تعلم أن القوة وحدها لا تكفى وأن السلام وإشاعة الحب والبناء والعلوم والفنون واحترام معتقدات الآخرين هى التى تطل فى عمر الأوطان وتبنى الحضارات والمنارات.

إن التتار هؤلاء الهمج عاثوا فى الأرض فساد وإفسادا وظنوا أن الدنيا بين أياديهم وقد غرتهم الأمانى فأشاعوا الفوضى وأقامت الدنيا على يديهم سرادقات العزاء للملايين الذين سقطوا تحت سنابك خيلهم حتى جاءت ساعة الغيب ولحظة الاحتضار وخروج الروح من أوصال تلك الإمبراطورية التى كانت تشرق بشمسها الحارقة ذات اللون الأحمر على الدنيا. لتغيب إلى الأبد ولن تجد لسنة الله تبديلا.

هشام خضر

الفصل الأول
شروق شمس التتار

قبل شروق شمس دولة التتار بنحو مائة عام أو أكثر كانت منطقة منغوليا الواقعة شمال الصين متاخمة بقبائل وجماعات وشراذم اشتهرت آنذاك بالهمجية والفوضى والقسوة والعنف والوحشية.

فى تلك الأثناء كانت القوة هى الوسيلة الملائمة والأكثر شيوعا وذيوعا وانتشارا فى تلك المنطقة التى افتقرت للأمن والنظام أو السلامة والطمأنينة حيث كانت شريعة الغاب هى التى تدير شئون الحياة عبر شعار البقاء للأقوى والفناء للأضعف.

بالطبع لم يكن السلام سائداً فى تلك المناطق التى شهدت صراعات ونزاعات ومعارك طاحنة اندلعت فيما بينهم للاستحواذ والسيطرة والهيمنة وفرض السيادة على شتى سبل العيش لاسيما البقاع التى تميزت بالثراء والخصوبة والنماء فيما يتصل بكثرة العبث ووفرة الماء لسهولة الرعى وتربية الأغنام.

وبما أن هذه المناطق قد عانت من ندرة الماء شريان الحياة لها ولقطيعها وأغنامها فقد سالت دموع كثيرة وتدفقت دماء غزيرة وتدحرجت رؤوس كبيرة فى صراعات طويلة نشبت بين أهالى شمال منغوليا حتى أضحى هؤلاء التتار والمغول يجهلون معنى الرحمة ولا يعرفون ماهية الحب بعد أن فقدوا الأمن والسلام.

ولأن تلك الأقوام قد وضعت من صدور امتلئت بالغل وارتوت من أنهار فاضت بالحقد واستوى عودها تحت شمس الكراهية فقد أوغلت فى البطش حتى باتت الغلطة من أبرز معالمها والوحشية فيما بينهم من أهم سماتهم حتى كادت

تنقرض من الوجـود لتصبح عدمـا ولولا نفر من أهلها لاندثرت وانتهت إلـى غير رجعة.

وفى أوائل القـرن السابع الهجـرى بدأت قبـائل التتـار تتحول من الـتراشق إلى التوافق ومن الانقـسام إلى الوئام ومن الحقد إلى الحب ومن الخـلاف إلى الائتلاف ومن التنابذ إلى الترابط ومن العدم إلى الوجود ومن الضيق إلى الأفق البعيد.

وأمام كل هذه التغـيرات المفاجئة والمثيرة أصـبحت قبائل التتار علـى غير ما هو متوقع دولة قوية صلبة عنيدة مـرهوبة الجانب تقذف الرعب تثير الهلع تخلع القلوب فترتجف منها البلدان وتتفكك على يديها الأوطان فتتهاوى العروش وتتطاير التيجان.

إذن يظل السـؤال الذى يدق الرأس بعنف.. كـيف اسـتطاع هؤلاء الهـمج أن يتحولوا من شيع متفرقة وقبائل مـتناحرة وجماعات متصارعة إلى يد واحدة وقلوب متوحدة تقاتل معا على قلب رجل واحـد بعد أن كان فيهم الأخ يقتل أخاه والابن يذبح أباه؟!

* * *

جنكيز خان

من المعلوم أن جنكيز خـان ملك التتار هو الذى أرسى دعائم دولة التتـار وشيد أعمدة إمبراطوريتها الرهيبة التـى هيمنت على العالم فأصبح جنكيز خان ومن خلفه سادة الدنيا ردحاً من الزمان دون أن ينازعهم فى ملكهم ونفوذهم كائن من كان.

ولقد ولد جنكيز خان عام ١١٥٥ ميلادية على الضفة اليمنى من نهر أنون المطل على إقليم (دولون يلدق) وقـد أصبح ضـمن المناطق التى كانت خـاضعـة للاتحاد السوفيتى.

أما والده فقد كان يدعى «بسوكاى» وهو أسير إحدى قبائل التتار وكثيرا ما خاض معارك طاحنة مع القبائل المجاورة وقد دفع ابنه «يتومشين» أو جنكيز خان للانخراط فى تلك الحروب رغم صغـر سنة حتى يتسن له الاطلاع على فنون الحرب وكيـفية المبارزة والتغلب على العدو.

كان يتـومشين أو جنكيـز خان محـبا للحروب ولا يتـردد فى التقدم للصـفوف الأولى رغم مخاطرها حتى نال دهشة أهالى قبـيلة واستغراب أعدائه الذين تربصوا له وقرروا اصطياده لإذلال والده الذى كان لا يكف عـن تدشين غارات ليلية على قبائلهم لذبح من بها والتنكيل بجثثهم واغتصاب نسائهم.

وفى إحدى المعـارك منيت قبـيلة جنكيز خـان بهزيمة ثقـيلة وقع على أثرها فى براثن الأسر أمـام أعين والده وقد ساقـه أعداؤه مكبلا بأغـلال فى حديد لا يلوذ بالهرب.

كان ديموشين حديث السن لكنه كان معـروفا بارزا بين الأسرى والسبايا بوصفه ابن أمير مغولى بيد أن ذلك لم يشـفع له عند أعدائه الذين باعوه فى سوق النخاسة لأحد التجار الذى اشتراه بثمن غير زهيد.

فى تلك الفترة العصيبة التى عاشها الصبى اضطر تحت وطأة نير العبودية للعمل فى صناعة الحدادة نظرا لقوة عضلاته وضخامة جسده وقامته الفارعة بيد أنه قد اعتزم الهرب إذا لاحت أمامه الفرصة.

وفى مساء أحد الأيام تمكن تيموشين من قتل حارسه الذى يقيده بالأغلال وقد عانى طويلا حتى تمكن من كسر قيوده والوحدة فى جنح الظلام الدامس إلى قبيلته التى استقبلته بحفاوة بالغة كأنه أحد أبطالها وعظمائها.

كان يتمرشيت مايزال على حاله قويا ماهرا فى فنون الحرب بارعا فى الصيد وركوب الخيل عبقريا فى المبارزة والرماية. وهو يتمتع بالصبر والتريث والأناة قبل اتخاذ أى قرار وقد كان لطيف المعشر مع خدامه وحراسه وهو ذو جبهة عالية وكث اللحية وله عينان صفراوان قيل إنهما لا ترمشان مثل عيون القطط!! مهيب الطلعة عظيم المنظر.

والواقع أن هذا الرجل عاد إلى قبيلته وقد عقد العزم على أن يشيد جيشا قويا مهما كلفه ذلك الأمر حيث أدرك أن التتار لقمة سائغة تمضغها أسنان الأعداء بسهولة ويسر نظرا للتباعد والتنابذ الواقع بين أبناء التتار والمغول رغم ضخامة أعدادهم وأجسادهم وعبقريتهم فى فنون القتال وقدرتهم على خوض الصعاب.

قرر جنكيز خان أن ينقل إلى قبائله ما رآه لدى الأعداء أثناء سنوات وقوعه فى الأسر حيث شاهد بعين رأسه الجيوش النظامية وكيفية توظيفها من أجل بناء الدولة وحماية الشعب والارتقاء بمستواه والنهوض بأحواله المعيشة.

كان المغول والتتار يئنون جميعا من ندرة الغذاء والماء ولا يتوحدون بل سرعان ما يتشاجرون فيما بينهم من أجل شربة ماء أو عنزة سلبها أحدهم أو كبش سقط مغشيا عليه بفعل سكين لص غادر أراد أن يسد مواء معدة أطفاله الجوعى من هنا

كان تيموشين قــد أطلق نداءه إلى شيوخ القبائل المغولية والتتــارية فى اجتماع عاجل وخطير من أجل لم الشمل وتوحيد الصف.

واستجــابت قبائل التتار عــلى اعتبار أنهم أصل هذه المنطقة وأقــدم سكانها على الإطلاق لاسيما وأن من عباءة التتار خرجت قبــائل أخرى كالمغول وقبائل السلاجقة وقبائل الترك وإن كان اسم المغول قد اطلق علــى جميع هذه القبائل بعد أن استطاع جنكيز خان بوصــفه من أصل منغولى أن يفرض نفوذ أصله على كافــة القبائل التى دانت له وخضعت لنفوذه وسلطانه المهيب.

ولأن جنكيز خان قد أصبح ملك على القبائل المغولية وغيرها التى تقع فى شمال الصين وبالتحــديد فى صحراء جوبى فــقد قرر أن ينشئ دين جديد يعــتنقه الشعب المغولى ويؤمن به على غرار الشعوب الأخرى حتى تتمكن العقيدة منهم فيخضعون له ولا يخرجون على طاعته وحكمه. فى بداية الأمر أصدر جنكيز خان قراراً بتغيير أسمــه القديم تيمــوشين الذى أطلقه عليــه والده تيمنا باسم أحد قــادة الحروب إلى جنكيز خان الذى يعنى عند المغول «قاهر العالم» وفى اللغة الصينية «ابن السماء».

(وبالطبع أراد جنكيز خان من وراء هذا اللقب إضفاء القــداسة والمهابة عليه حتى يضمن ولاء القــبائل له لعله يســتطيع تحقيــقه مآربه فى تــكوين جيش عرمــزم يصد هجمات الأعداء وغــاراتهم التى لا تتوقف) ثم سرعان ما يتــجه إليهم لسلب ونهب ثرواتهم من أجل اطعام التتــار الذين تتزايد أعدادهم يوما بعــد يوما وتنضب موارد معيشتهم ساعة بعد أخرى.

كان هناك بعض شــيوخ القبــائل الذين تميزوا غيظا من جنكيــز خان الذى نصب نفسه زعيــما وحاكما دون أن يعينه أحد أو يدفــعه لمثل هذه المناصب والألقاب التى خلعها على نفسه عنوة دون استشارة شيوخ القبائل وزعمائها.

ولأن جنكيز خان كان على يقين من ظهور بعض الزعماء المناهضة لقيادته والرافضة لدوره فقد سلك طريق البطش والوحشية والإذلال لإخضاع من تسول له نفسه الخروج على نظام حكمه أو الانقلاب عليه فى الحاضر والمستقبل.

وأمام التحديات التى أظهرها زعماء العارضة أمر جنكيز خان حراسه بإلقاء القبض على هؤلاء الذين علت أصواتهم وتجاسروا على مؤاخذته ومعارضته جهارا نهارا.

ودون تردد انطلق رجاله الأشداء إلى من تصدرت أسماؤهم قائمة المغضوب عليهم وساقوهم فى دياجير الظلام الحالك مكبلين بالأغلال معصوبين الأعين إلى مقر ابن السماء أو مبعوثها الذى أمر حراسه بإلقائهم فى الزيت المغلى لإرهاب وتخويف كل من تراوده فكرة الخروج عليه أو معارضته.

لم يكن ذلك الأمر يقتصر على الذين جاهروا بالعصيان بل امتد إلى من ارتاب فى ولائهم له وعدم حرصهم على النهوض بمملكته التى يعتزم تشييدها حتى استطاع بالحديد والدم أن يسيطر على سائر القبائل التى روعتها ألوان التعذيب فدانت له صاغرة راكعة جاثمة على ركبتيها.

* * *

نعود والعود هنا غير أحمد إلى الدين المزعوم الذى ألقى به جنكيز خان (مبعوث السماء) إلى الأقوام التتارية والمغولية حيث قام هذا الأحمق بتجميع بعض من تعاليم وشرائع الإسلام والمسيحية واليهودية والبوذية والكونفوشيوسية وبعض من أفكاره الشاذة وقام بدمج كل هذه المعتقدات والأفكار فى كتاب واحد أصدره حتى يكون دستورا يلتف حوله المغول ويهتدون بهديه المزعوم وينشرونه مبادئه على الدنيا وكأنهم أصحاب رسالة خلقهم الله من أجلها.

لم تقف الأمـور العبـثيـة عند هذا الحد بـل راح جنكيز خـان يطلق على هذا الكتاب العجيب عنوان «الياسك» على اعتبار أنه كتاب مقدس وسرعان ما أعلن بعد صدوره أن المغول هم (شعب الله المختار) وأن جميع ثروات الأرض وخيراتها ينبغى أن يسيطروا عليها وأن شعوب الدنيا وقبائلـها قد خلقها الله لخدمة التتار الذين أطلق عليهم المغول:

عما أن الدين المزعوم الذى ابتدعه جنكيز خان يدعو فى جوهره إلى فتح جميع أنحاء الكرة الأرضـية من أجل العـمل على تطهيـرها من دنس البرابرة والشـعوب الهمجية حتى يتمكن المغول من تكريس معتقداتهم ورفع راياتهم المقدسة خفاقة على قلاع العالم تؤذن بالدين الجديد!!!

* * *

بعد أن نجح جنكيـز خان فى إخضـاع شعوب المغـول لسلطانه والتفافـهم حول صنعه الذى بات مقدسا راح يلتفت بعناية شديدة إلى تكوين وتأسيس جيشه المرتقب لتحقيق أحلامه وإشباع رغباته الجامحة فى سيادة الدنيا وإخضاعها لنفوذه.

بادئ ذى بدء قام جنكـيز خان بتـقسيم الشـعب المغولى إلى آلاف ثم مـئات ثم عشـرات وقد عين على رأس كل ألف جندى قـائدا ثم لكل مائة أخـرين قائداً ثم قائدا لكل عـشرة وقرر إعفـاء جميع القادة السـابقين من مناصبهم لندرة خـبراتهم وعدم كفاءتهم وبهدف انهاء عصر المحسوبية والتعيين بالوراثة!!

وفى أعقاب بناء هـذا الجيش العسكرى الذى يحتـوى على عشرات الآلاف من جند التتار بدأ جنكيـز خان فى تدريبهم وفق مناهج عسكرية صاغهـا بنفسه لتأهيل الجنود على ملاقـاة العدو مـهما كـان شأنه والتحـسب لمفاجآته الـتى قد تصيـبهم بالرعب.

لم يكن جنكيز قابعا فى خيمته الصفراء بل كان يحرص على مشاهدة التدريبات بنفسه والمرور بين صفوف الجند لا تشجيعهم وإثارة حماستهم ورفع معنوياتهم من خلال خطبه الرنانة وشعاراته الطنانة وتحفيزه بالهدايا الثمينة لمن يبرهن على كفاءته ومهارت وعبقرياته وشجاعته.

وحين اطمئن قلب جنكيز على قواته جيشه وكفاءته قرر البدء فى محاربة بلاد الصين العريقة وفتحها للحصول على خبراتها وثرواتها وراح يقف على رأس جنود جيشه العرمرم الذى بدأ يتأهب للحرب على جمر من النيران المستعرة تواقا لكسر عظام العدو المجاور ونهش لحمه الطرى.

كان جيش التتار الذى أسسه جنكيز خان يرتكز على مقدمات أساسية أدت إلى إعلاء شأنه وتعظيم مكانته بين الأمم كان أهمها على الإطلاق تنصيب قيادة عسكرية تتسم بالعبقرية والدهاء والأخذ بنظام صارم فى إعداد فرق الجيش أضحى نظاما متبعا فى جميع جيوش العالم فضلا عن الاعتماد على أعداد التتار الكثيفة التى كانت تخلع قلوب الجيوش الأخرى مع أهمية التمسك بسرعة الانتشار التى تميزت بها جيوش التتار وأثارت دهشة الأعداء.

أضف إلى ما سبق الإشارة إليه ما تحلى به جنود جنكيز خان من جسارة وشجاعة وصلابة وعناد وإصرار على إحراز النصر بغض النظر عن مقدمات العدو وعناصر قوته فضلا عن قدراته الفذة فى مواجهة التحديات والصعاب سواء كانت جغرافية أو مناخية.

لكن على الرغم من براعة جنكيز خان وعبقريته فى رسم الخطط العسكرية ومهارته فى إتمام النصر وتدشين قواعد عسكرية مغولية فى كافة أنحاء الدنيا لم يكن قائدا إنسانيا يحزم قواعد وأسس ومبادئ الحروب وقيم القتال.

كان جنكيز خان قائداً بلا قلب يقود جيشا عرمرم من الذئاب والأسود والثعالب والأفاعى ومصاصى الدماء حيث لم يكن قد تدربوا على احترام حقوق الإنسان وكيفية معاملة العدو بل اعتادت جيوش جنكيز على الممارسة البشعة والعنيفة التى كانت قد ارتكبتها زمن الهنجية الأهلية.

لم تتغير طبائع المغول وسلوكياتهم الفوضوية رغم جيشهم الحديث والمتطور والذى اعتمد على الفكر والعقل والأساليب العلمية بيد أن الهمجية قد انتصرت على حضارتهم الحديثة حيث مارسوا أثناء القتال أبشع وأفظع وأقسى ألوان وأنواع الخراب والتدمير.

لقد قام التتار أثناء المعارك وبعد إتمام النصر بمآس يندى لها الجبين ويشيب منها الرضع وتتحرك من هولها الجبال وينطق أمامها أبو الهول وترعد لها السماء وترق وتمطر حزنا وأسفا.

إن المذابح والمجاوزر والحرائق التى نصبتها جيوش التتار ستظل محفورة فى جدران التاريخ كشاهد ملك على شراسة وقسوة هؤلاء الهمج الذين يقروا بطون الحوامل وقطعوا رؤوس الرضع وشنقوا الرجال واغتصبوا النساء وأضرموا النيران فى أرجاء الدنيا حتى ظن الناس أنهم من جنس العفاريت والأبالسة ومن ثم لم يكن مستغربا أن يؤرخ البعض من جهابذة الفكر أن التتار كانوا يهدفون إلى إبادة البشرية وتدمير الكون».

وقد علل أساتذة التاريخ سلوكيات التتار الهمجية بقولهم إن قوة باغتت العالم بظهورها فضلا عن أنها بلا تاريخ أو حضارة ومن ثم تفتقر إلى المخزون الثقافى والدين وربما كان ذلك قد أدى إلى شعور جارف بالضعف وعدم مجاراة الغير ولذلك اضطرت إلى الأخذ بأسباب القوة لتعويض ذلك النقص الذى استولى على مشاعر مؤسسها وملكها جنكيز خان.

* * *

الخريطة الدولية

مع ظهور جيش المغول ودولتهم المهيبة كـانت بعض القوة العالمية تشكو ضعفا قد تغلغل فى أوصالها وتمكن من رأسـها حتى شاخت تلك القوى بعـد أن كانت تبعث على الخوف وتثير الرهبـة فى زمن ما وكأنها بضعفها وتخاذلهـا هيأت المسرح للفتى المغولى القادم لكى يلعب دور البطولة المطلقة.

لم تكن الإمبراطورية البـيزنطية أسعد حالا من غيـرها حيث كانت هى الأخرى تشكو قلة حيلتها وهوانها وضعفـها واندثار قوتها بعد أن كانت ذات شأن عظيم بين سائر الأمم بعـد أن أنهكتها الحـروب الطويلة مع العالم الاسلامى وتداعـيات تلك المواجهات الشرسة فـى اضمحلال مواردها وطاقتها التى أصابهـا الوهن بعد عقود طويلة من القتال الشرس والعنيف.

أما دولة الكرج أو جـورجيا الآن التى انفصلت عن الاتحـاد السوفيتى وتـرأسها إدوارد شيـفرنادزة أول من تولى رئاسـتهـا بعد استـقلالهـا كانت قـد خاضت هى الأخرى حروب طويلة وكـثيرة وعنيفـة مع دولة خوارزم حتى أصاب الكرج ضـعفا هائلاً بدا كالشرخ العميق الذى يتعذر ترميمه على الصناع المهرة.

فى تلك الفترة الزمنية أيضا لم تكن مملكة أرمنيا بعـيدة عما يجرى من حولها بل خاضت هى الأخـرى معارك كـثيرة وشـرسة مع دولة السلاجـقة أدت إلى تقليص دورها واختفاء نفوذها وتلاشى قوتها.

أما الدولة الـعظمى المهيبـة التى عرفت آنذاك بالـدولة الخوارزميـة فقـد شاخت وضعفت مكانتها وغربت شمسها بعـد أن كانت شوكة مغروسة فى الجسد الصليبى الأوربى لاسيـما وأنها كـانت عظيمة المكانة ترتعـد منها فرائـص الأمم وتنخلع منها

القلوب حيث كانت أغلب بلدان القارة الأسـيوية تنضوى تحت لوائها ومن ثم كانت حدودها تبلغ دون مبالغة من غرب بلاد الصين من ناحية الشرق إلى مناطق واسعة من غرب إيران لكنها هى الأخرى قد أوقعت نفـسها فى شراك الضعف والاستكانة بعد إصرارها على خوض حـروب طاحنة بددت طاقتها طوال عقود مواجـهتها مع جيوش الخلافة العـباسية التى ناصبتها العداء وأرادت أن تنزع منها الخـلافة كما أنها خاضت حروبا أخرى مع دولة السلاجـقة ودولة الهند التى كانت لسلطان الغور بين أنذاك وقد شن حروبا ومـعارك متصلة مع الدولة الخوارزمـية من أجل بسط النفوذ وفرض السيادة وتكريس الهيمنة والصراع على إدارة شئون أسيا ومن ثم التحكم فى مصـير الكرة الأرضية وهى حـروب كانت تهدف إلى توسـيع نفوذ التيجـان الملكية وتعظيم شأن الأسر الحاكمة بغض النظر عن انعكاساتها ومردوداتها السلبية والخطيرة على شباب أسيا الذين خطفهم الموت فداء لتاج ملك وتضحية لعرش سلطان.

أما الدولة العباسية التى كانت أقوى دول العـالم وأشدها بأساً وأعظمها شأنا فقد خارت قواها وانطفأ بريقها بعد أن كانت إمـبراطورية مترامية الأطراف لها أبلغ الأثر فى التاريخ الإسلامى لكنها بمرور الزمن وتكالب حكمها علـى مباهج الدنيا ومفاتنها وانكفائهم عـلى ملذاتها وانشغـالهم فى توريث عروشـها لأبنائهم كـانت الدولة قد انفرط عقدها لتتناثر حباتها واحدة بعد الأخرى.

كـانت الدولة العبـاسـية لا تسـتطيع فـرض سيطرتهـا على ممالكهـا التى أعلنت استقـلالها أو عصـيانها وتمردها بعد أن لاح للجـميع حقيـقة الوهن الذى دب فى عرش الخلافة.

بالطبع كان جيش الدولة العباسية من أعظم وأقوى جيوش العالم أجمع بيد أن ما أصابه من ضعف قد أتاح الفرصة لظهور الهمج المغوليين على خشبة المسرح العالمى

وكأنها كـانت اتفاقية للانبطاح الطوعى للقـوة التتارية الوليدة حـتى تهنأ بالدنيا لتندثر وتعود حيث كانت !!!

لكن الدولة الفارسية هى الأخـرى رغم تاريخها العظيم ونفوذها الكبير ومـهابتها فقد انشغلت فى صراعـات عقائدية بين طوائفها الشيعيـة والباطنية التى انهمكت فى أعمال القتل الطائفى دون أن تعى أن هناك بالقرب مـن حدودها مارد قد خرج لتوه من القمقم وآن له أن يطيح بمن حوله ويقضى على من يهدده.

فيما كانت تركيا تعانى صـراعات حادة بين أحفاد القائد السلجوقى المسلم (ألب أرسـلان) أعظم من حكم وقـاد وترأس دولة السلاجـقـة حيث اندلعت الحـروب الأهلية بين ورثة هذا القـائد ومن ثم لم يكن من بين هؤلاء الأحفاد الطامـعين فى أريكة العرش من يبالى بما يجرى من حوله وما سـيحدث فى السنوات القادمة حيث كان التاج المرصع باللؤلؤ والماسى هو الشغل الشاغل لهم جميعا.

لكن الدولة الصليبية لم تكن أوفر حظا من مثيلاتها بل كانت بدورها قد عانت ضعـفا بعد سنوات من الحروب والصـراعات وإن كانت قد حـرصت على قدر لا بأس به من القـوة إذا قورنت بالممالـك التى استعـرضنا موازين قـوتها بيـد أن قوة الصليبين لا يمكن بحال مـقارنتها مع القوة العظمى الوليدة التى أعلـنت عن نفسها بوصفها القوة العظمى الوحيدة بلا منازع فى هذا العالم.

* * *

الفصل الثاني
التتار والعالم

بعد أن تمكن جنكيز خــان من تكوين وتأسيس أضخم وأعظم جيــوش المعمورة راح يلقى ببصره ناحية بلاد الصين المجاورة التى تكتظ بــالخير والثراء لتدشين قاعدة اقتصادية تتــمكن من الإنفاق على جيش حالم متطلع مــتلهف للسيطرة على العالم ومن ثم بات فى حاجة ملحة وضرورية للمال لتدبير لوازمه واحــتياجاته الاستراتيجية وكانت الصين هى أول بلاد شمس التتار المشرقة المتوهجة حيث باغتت جيوش التتار أهالى بلاد الصين الذين لم يتوقعوا ما يجــرى أمامهم من احتلال وسيطرة وخراب وتدمــير وســرقة وسلب ونهب وفــرض سيــادة جديدة من أجناس لم تكــن سوى مجموعة من الشراذم والقبائل المتناحرة.

لقد اســتولى الذهول على حكام الصــين وشعبــها الذى سقط فــى براثن الطغاة الجدد الذين لا يتورعــون عن سفك الرساء وإزهاق الأرواح واغتــصاب النساء دون أن يرمش لهم جفن أو تتساقط من عيونهم دمعة أسف.

وهكذا وفى ليل بهيم ســقطت بلاد الصين تحت سنابك خيل التتــار لتصبح تلك البلاد الشاســعة واحدة من أهم وأبرز ممالك التتار لتكون مــقدمة لما ستســتولى عليه مستقبلاً حتى تصبح امبراطورية مترامية واسعة كبيرة ضخمة مهابة ومرهوبة.

بعد أن سيطر المغــول على بلاد الصين راح جنكيز خان يعلن عن ميــلاد جيشه العرموم إيذانا بنشوء إمبراطورية الجديدة فراحت الدول الأوربية تناشده القضاء على الدولة الإسلامية العباسية.

صحيح أن الأوربيين لم يكونوا فى مناشدتهم يحرصون على قوة المغول بقدر ما كانوا يعملون على إضعاف وتبديد طاقة الدولة العباسية التى كانت مصدر خطر يتهدد الوجود الأوربى ويعرقل أطماعه التوسعية فضلا عن الحقد الدفين الذى يسكن ويتمدد فى صدر الأوربيين من الإسلام والمسلمين فى ذلك الوقت وتجلى فى حملاتهم الصليبية على ديار الإسلام.

وصحيح أيضا أن الدولة العباسية قد أصابها الوهن فى تلك الأثناء بيد أن أوربا كانت تتطلع إلى القضاء عليها بصورة نهائية حيث كانت الدولة العباسية رغم شيخوختها ماتزال تعتمد على تاريخها المجيد وحروبها العظيمة التى أثارت الرعب فى صدور العالم وشيدت لنفسها مجداً لايستهان به.

ولأهمية القضاء على تلك الدولة العباسية راح ملوك أوربا يجتمعون فى روما لبحث الأمر وكيفية التعامل مع ملك التتار جنكيز خان وما يمكن أن يقوم به ضد الدولة الإسلامية لتعويض عجزهم وخوفهم منها ومن هنا قرروا إرسال وفد يضم بعضا من الرموز الأوربية لمقابلة جنكيز خان.

وراح الوفد الصليبى يحمل خريطة العالم الإسلامى ويشرح لجنكيز خان كيفية تصفية هذه الامبراطوريات التى تناصب العداء للبشرية ولا تتورع فى سفك الدماء وإزهاق الأرواح من جانبه كان جنكيز خان يبدو كالليث الذى يبحث عن فريسة يلتهما لسد مواء معدته فبرقت عيناه ولمعت إزاء الفريسة التى تتراقص أمام عينيه وما أعظمها تلك الفريسة التى تتسم بالثراء الفاحش والعظيم.

بالطبع أكد غلاة الصليبيين أنهم لن يقفوا مكتوفى الأيدى إزاء حرب المغول مع المسلمين بل سيبذلون قصارى جهدهم لدعم الجيش المغولى بشتى الأدوات والرسائل من أجل تهيئة المناخ الملائم للجيش المغولى حتى لا يتعذر عليه إبادة الممالك الإسلامية ليصبح العالم أكثر أمنا وسلاما وإطمئنانا.

من جانبه رحب جنكيز خان بالطرح الأوربى وراح يدرس الأمر مع معاونيه من كافة الأوجه حتى يقف على حقيقة النوايا الأوربية رغم إدراكه المبكر لما تضمر له وللممالك الإسلامية من شرور وأحقاد وضغائن.

أدرك جنكيز خان أن أوربا أرادت أن تقضى على كلا الدولتين من خلال حروب تندلع بينهما حتى تنكسر شوكتهما بعيدا عنها فلا يعكر صفوها أحد ولا يثير مخاوفها كائن من كان ولكن جنكيز خان الذى كان على يقين من حقيقة النوايا الأوربية قد قرر المضى قدما فى تنفيذ هذا المخطوط التآمرى الذى صاغته أوربا بحرفية شديدة الدقة طمعا فى الممالك الإسلامية العامرة بالخيرات والثروات والكنوز والطبيعة الجغرافية والمناخية والموارد الطبيعية التى تلهب خيالات أى جيش ولاسيما إذا كان هذا الجيش فى مكانة وصلابة جيش التتار الوليد وبالطبع توافقت أطماع جنكيز خان وامتزجت برغبات أوربا ليشهد العالم الإسلامى مجازر ومذابح وسيول من الدماء وفيضانات من الدمع وخراب وتدمير وإبادة ومهالك ومعارك كان لها أبلغ الأثر على الدولة العباسية ومن قبلها الدولة الخوارزمية.

وكما أشرنا كانت الدولة الإسلامية سواء تلك التى فى بغداد والشهيرة بالدولة العباسية أو التى امتدت حدودها إلى غرب الصين وتعرف آنذاك بالدولة الخوارزمية قد عانت كلاهما ضعفا ووهنا على يد حكامها وسلاطينها الذين انغمسوا فى ملذات الدنيا واقتصرت همومهم على كيفية توريث الحكم لأبنائهم.

وهكذا تراخت قبضة العالم الإسلامى وانفرط عقده على يد من لم تشغلهم سوى أهوائهم وشهواتهم وأطماعهم بعد أن أرخوا الأستار على أمتهم الإسلامية لمدارة سوءاتهم وقبحهم ليتسن لجنكيز خان الأمر لالتهام الممالك الإسلامية واحدة بعد الأخرى دون أن يرد على خاطره هذا السقوط الذريع والمدوى والعجيب.

على أية حال أنهى جنكيز خان ذاك القائد الفذ والعبقرى مشاوراته ودراساته وأبحاثه المستفيضة فى هذا الشأن من أجل الوصول إلى قرار حاسم يحدد إلى أين سيتجه الجيش التتارى للبدء فى تفصيل خطته الرامية للقضاء على العالم الإسلامى واحتلال أراضيه وفرض الإرادة المغولية على ربوعه وتنصيب جنكيز خان سيدا على العالم بلا منازع وتوصلت الدراسات والمناقشات إلى أهمية البدء فى العمل على تدشين حملة عسكرية ضخمة تتجه نحو الدولة الخوارزمية وما من شك أن الدولة الخوارزمية ذات ثقل يتعذر إغفاله وتجاهله أو القفز عليه حيث كانت تضم تحت عباءتها العديد من الأقاليم المهمة فى قارة أسيا فى طليعتها أفغانستان وأوزبكستان والتركستان وقازاخستان وطاجكستان وباكستان وبعض مناطق من دولة فارس وعلى رأس كل هذه المدن التاريخية العظيمة تأتى مدينة أورجندة[1].

من هنا بدأت أولى المواجهات الدامية بين عروش الكفر والإيمان فهل سينتصر الكفر على الإيمان وهل سينصر الله عباده المؤمنين؟ أم سيجعلهم أذلاء بعد أن اغتروا بالدنيا وفتنتهم محاسنها وأقبلوا عليها فأدبروا عن دينهم؟! من الذى سينتصر جنكيز خان ملك التتار أم الشاه محمد سلطان الدولة الخوارزمية؟

لم يكن جنكيز خان مجرد حاكم بل كان رجلا وهب نفسه لخدمة شعب همجى استطاع بذكائه وحنكته أن يرسى له دعائم دولة لها مكانتها وأن يثير مخاوف جيرانها وأن يحمى أسوارها تلك الدولة التى شيدها بجهده وعرقه ودمه ونضاله وكفاحه.

أما الشاه محمد فقد ورث هذه الممالك عن آبائه وبدلا من الحفاظ عليها وحمايتها وإعلاء شأنها راحت تتهاوى منه واحدة بعد الأخرى بفعل سياسته العرجاء وانغماسه فى إشباع رغباته هو وأسرته وتجاهله لشئون أمّته وأحوال الشعوب التى

(١) تركمنستان حاليا.

دانت له بالولاء واتصاعت لأوامره ورضـخت لنواهيه ظنا منهم أنه الأجدر والأحق دون غيره.

كان جنكيـز خان يلتقى ضيـوفه ورجاله داخل خـيمة صفـراء مربوطة على وتد ضخم مصنوع من الذهب الخالص وعلى بابهـا يقف (سيسنتر) ذاك الجواد الأبيض الذى زعم كهان جنكيز خان وأنصاره أنه جواد مقدس يقف بقداسته وراء انتصارات الخاقان الأعظم جنكيز خان فى جميع معاركه وحروبه.

وبعض كهنة جنكيـز خان فى مزاعـمهم أن إله الحرب (سولد) الذى لا تبـصره عيون البشر يقود هذا الجواد ويتقدم صفـوف جيش الخاقان جنكيز خان ليدفعها إلى النصر السـاحق الماحق.

وفى الجانب الأيمن من خيمة جنكيز الصفراء يقف جواد أخر أطلق عليه جنكيز خان لقب «النعمان» وقيل إنه جواده الأقـرب إلى نفسه دون غيره وكان ذا لون يميل إلى الصفرة وفيه بقع كبيرة سوداء وذيل أسود اللون وعلى جنبيه غرة بيضاء.

وبجوار الجواد الأبيض المقدس «سيتر» يوجد عود طويل من اليراع ترفرف أعلاه علم جنكيـز خان وفى أسفل الربوة وحـول خيام الخـاقان يقف حـرس من أشداء المغول وأضخمـهم من حيث البنية الجسدية الذين يقفـون حائط صد منيع ضد من يعتزم الاقتـراب من خيمة الخاقان مع جواز المرور فقـط لمن يحملون اسطوانة ذهبية نقش عليها «رأس نمر».

ويبدو أن جنكيـز خان كان مـولعا بالنمور الشـرسة شغوفـا بها حتى أن عـرشه الذهبى كان قد شيـد على هيئة تنين السعادة وحش الطالع فيمـا كان ذراعا العرش قد صنعـا على هيئة نمرين راح كل منهمـا يكشر عن أنيابه حيث كـان هذا العرش مخـصصا فى الماضى لأباطرة الصـين غير أن جنكيز خـان استولى عليـه واصطفاه لنفسه.

وفى الغالب كانت زوجته الحسناء (قولان خاتون) آخر زوجاته وأجملهن وابناه أوغيداى ولى عهده وطولى الذى كان يجلس جهة اليسار بوصفه الأصغر سنا ثم يجلس شقيقه بصورة دائمة لتجاذب أطراف الحديث فى شأن الشعب المغولى وكيفية توظيف كفاءته وجسارته لخدمة جنكيز خان وتحقيقه أحلامه وأطماعه التوسعية.

وسط هذه الصحبة الدائمة لجنكيز خان كانت تشتعل مواقد النار التى يعتقد كهنة الخاقان جنكيز أنها مقدسة تطهر القلوب وتطرد الأفكار الشريرة والأرواح الخبيثة فيما كان العبيد يقرعون الطبول الضخمة وهم ينشدون بأهازيج العبادة والتضرع ويلقون فى مواقد النيران بعيدان الصندل والخشب المعطر لتفوح منهما رائحة ذكية تضفى على المكانة هالة من الروحانية والقداسة المزعومة.

ويقال إنها كانت توضع قبل خيمة جنكيز الصفراء لكى يمر عليها من يقصد لقاءه حتى يبدأ من العلل والضغائن التى تسكن نفسه وتتمدد فى قلبه حيث لا ينبغى المثول بين يدى الخاقان الأعظم مبعوث السماء والأحقاد تفوح من صدره برائحتها العفنة!!!

هكذا كان حال مبعوث العناية الإليهة المزعوم الكذاب الخاقان السفاح جنكيز خان الذى كان قد نقش على خاتمه الخاص به (الرب فى سمائه.. وجنكيز خان على الأرض، ظل قوة الله).

(خاقان التتار.... عاهل جميع شعوب الدنيا).

أما الشاه محمد علاء الدين سلطان خوارزم فقد أطلق على نفسه سيف الإسلام المسلول وخليفة الأسكندر ذى القرنين فى البأس والحول والطول.

وكان السلطان محمد عاهل دولة خوارزم أو البادى شاه ابن السلطان الراحل طقش والسلطانة طرخان خاتون يدير شؤون مملكته الواسعة الضخمة من خلال أحد

القصور العريقة التاريخية والمنيفة فى العاصمة (أورجندة) وبالتحديد فى قاعة السجادة وهى حجرة كبيرة تبعد عن جميع غرف القصر من خلال دهاليز متعددة وكثيرة ويكتظ بها حراس غلاظ قساة القلوب عمالقة يراهم الرائى كالمردة.

وهى قاعة جدرانها سميكة من غير نوافذ وأبواب ضخمة وستائر ثقيلة مصنوعة من أفخر وأغلى أنواع السجاد.

وقد شهدت هذه القاعة اجتماعات ولقاءات ومباحثات وتقارير وشايات ومكائد ودسائس وصدور أوامر وقرارات وتعليمات وصرخات وضحكات وبكائيات وآهات وغراميات وعداوات وأوامر صارمة بالقتل والذبح والتنكيل بخصوم الشاه وأعدائه والطامعين فى ملكه.

ويروى المؤرخون أن هذه القاعة شهدت أحداث عنف رهيبة كان بطلها السلطان محمد الذى كثيرا ما ذبح نساءه الخائنات بواسطة كبير جلاديه (شاهان بهلوان).

أما موكب الشاه محمد فحدث عنه كما تشاء حيث يخرج الفرسان أمامه فى صفوف منتظمة على خيول تزينت بأردية مغزولة من حرير طبيعى وقد تمنطقت أحزمتهم بسيوف ذهبية لامعة براقة تخطف الأبصار بينما يتصف الركب السلطان محمد وهو يمتطى جواده الضخم الأشعث الذى تزين بسيراج مذهب مرصع بالجواهر واللآلئ.

أما السلطان نفسه فقد كان بهى الطلعة جميل المنظر أنيق الملبس على رأسه عمامة كبيرة منسوجة من خيوط الحرير الناصع البياض مشغولة بالدر والماس والياقوت وأما قباؤه الأرجوانى فقد توهج فى ضوء الشمس وقد شهر سيفه الذهب البراق المطعم بالماس والياقوت واللؤلؤ[1].

---

(١) سفاح الشعوب جنكيز خان للمؤلف الصينى ف - يان.

وخلق السلطان محمد يمضى ابنه الأكبر الأمير جلال الدين الابن الأكبر للشاه وبجواره شقيقه الذى يعد أصغر أبناء الشاة وفق القواعد البروتوكولية التى أرساها البلاط الشاهنشاهى.

أما الذى يلى أبناء الشاه موكب أخر يتقدمه علية العائلة الحاكمة يمتطى كل منهم جواداً أبيض اللون يسر أعين الناظرين من حسنه وبهائه فيما ارتدى الفرسان الثلاثة ثيابا لامعة ارجوانية اللون.

ومن وراء هؤلاء النبلاء يسير نحو خمسمائة فارس على ظهور جيادهم لحراسة الموكب فيما يتقدم مثلهم موكب السلطان لإخلاء الطريق وتأمين حياة الشاة.

وعلى الرغم من الألقاب الدينية الرسمية التى كان ينادى بها منادى السلطان بوصفه أمير المؤمنين وحامى حمى ديار الإسلام وسيف الإسلام المسلول وحامى شئون الملكة إلاً أن خضوع رعاياه وخنوع شعبه لم تكن تلائم تلك الألقاب بل كانت تنسجم مع الألقاب الأخرى كملك العالم وسيد الدنيا.

أما الذى يدعو إلى ذلك هو المشهد المقزز للقلب العامر بالإيمان والمفعم بخشية الله حيث كان أهالى الأقاليم التابعة والخاضعة للشاه محمد يركعون على الأرض ويسجدون إذا أمامهم وفق توجيهات القصر الخوارزمى وأوامره الصارمه حيث يحظر على أى مواطن أن ينظر إلى سيد الكون أو يتملى منه ومن ثم وجب السجود ولحس التراب إيثاراً للسلامة والغريب أن سجود الرعية لم يكن يحول بينهم وبين إطلاق الهتافات والأناشيد والشعارات التى تتغنى بأمجاد ومآثر وعظمة وفخامة ومحاسن ومناقب حضرة سلطانى البلاد حفظه الله الذى لم يكن يعبأ بتلك المظاهر أو بالأحرى كان يتظاهر بأنه لا يبالى بها كأنه ناسك زاهد عابدا يبتغى وجه رب العالمين بعد أن أعرض عن الدنيا ومفاتنها.

إذن نحن الآن أمام رجلين افتتن بهما الرعيـة وبلغ كلاهما حد القداسة فالأول هو مبـعوث السماء الـذى جاء لنصرة المغول شـعب الله المختار والآخـر هو سيف الإسلام المسلول وحـامى الديار الإسلامية وليـبقى السؤال لمن سـيكون النصر ومن الذى سيقود العالم عبدة النار أم عـباد الله؟ وهل عباد الله المؤمنين قد تأهبوا لملاقاة عبدة النيران الملاعين أم أنهم ظنوا أن إيمانهم بالله يكفى للانتصار على غيرهم؟!

هل ستشـرق شمس التتار على الدنيا من شـرقها وغربها وشمـالها وجنوبها أم ستنطفئ وستخبو وتغرب بغيـر رجعة؟ من أسف ستشرق شمس هؤلاء الهمج على الدنيا بعد أن تقـوست ظهور المؤمنين من فرط انحنائها لعظمـة السلطان وآه لو أنها كانت قد انحنت وركعت وسجدت لرب العالمين لتـغير وجه الحياة ولأشرقت شمس الإسلام بوهجها وضوئها ودفئها على الدنيا بأسرها.

إذن ما الذى جرى ما الذى حدث بين سيد العالم السلطان محمد ملك وحاكم وعظيم الدولة الخوارزمية وجنكيز خان خاقان المغول وسيد العالم وامبراطوره؟! قبل المواجهة التى اندلعت بيـن الرجلين واجهت السلطان محمد أزمـة حادة أرقت نومه وأجهدت رأسه حيث تـلقى أنباء تفيد بخروج السلطان عثمان حـاكم مدينة سمرقند على طاعته رافضاً الدوران في فلكه والحكم تحت مظلة سلطته.

لقـد أدرك السلطان محـمـد أن الوقت لم يكن ملائـما لدراسـة أسبـاب هذا الانقلاب والتـمرد والعصيان المفاجئ ومن ثم قـرر على الفور الزحف على رأس جـيشـه لإعادة الأمـور المضطربة فى سمـرقند إلى طبـيعـتهـا حرصا على كيـان إمبراطوريتـه وحتى لا ينفرط عقدهـا إذا أدار ظهره وصم أذنيه وعقد لسـانه وأغمد سيفه واستعمى ما يجرى أمامه.

وانطلقت حملة عسكرية ضخمة تولت تأديب السلطان عثمان ومن عاونه وسانده ودعمه من أهالى سمرقند وقد أبدى السلطان عثمان أسفه واعتذاره للسلطان محمد بعد أن ركع أمامه و نثر التراب على وجهه إمعانا فى طلب العفو والصفح وإظهار الذل والهوان لعل قلب السلطان محمد يرق لمن كان يوما زوج ابنته ووالد أحفاده وبالفعل رق قلب سلطان خوارزم وكاد يعفو عن زوج ابنته ويصفح عنه لولا اصرار الابنة على إعدامه هو ومن ولاه حيث لاقت الابنة شتى ألوان التعذيب والتهكم والسخرية على يد زوجها وأقاربه الأتراك.

ولم يكن أمام السلطان محمد سوى إتمام رغبة ابنته التى كانت تدافع عن سمرقند من خلال إحدى القلاع التى تحصنت بها ومعها عدد هائل من أتباعها الذين تعاطفوا معها ودافعوا عنها وعن ملك أبيها حتى تبلغ مآمنها على يد جيش أبيها العرمرم.

بعد أن تدحرجت رأس السلطان عثمان ولفظ أنفاسه الأخيرة وأصدر السلطان محمد فرمانا يقضى ببناء قصر منيف يليق بعظمته ومكانته وهيبته فى سمرقند التى أصبحت عاصمة ملكه المترامى.

وفى أثناء وجوده فى سمرقند لإعادة ترتيب أوضاع ملكه ودراسة أحوال حكامه وإعداد وتجهيز جيشه بعد معركته الفاصلة مع زوج ابنته تقدم وفد رفيع المستوى من أمراء الكبشاق تلك الطائفة التى تتحدر منها والدته السلطانة (طرخان خاتون) مصباح العفة ومثال العدل.

كانت زيارة الوفد تتعلق بمناشدة السلطان محمد سرعة التدخل لإنقاذ أرواح طائفتهم التى أبادتها جيوش التتار على يد ابن جنكيز خان حتى أن نحو عشرين ألفا منهم قد علقهم جيوش التتار على فروع الأشجار من أرجلهم بعد أن تطايرت رؤوسهم بسيوف التتار.

والواقع أن السلطان محمد قد استولى عليه الذهول حين نمت لعلمه تلك الأخبار المفزعة لاسيما وأن والدته كانت من تلك الطائفة التى أبادتها جيوش التتار ومن ثم وجب عليه التحرك إجلالا لوالدته السلطانة المحبوبة.

* * *

الفصل الثالث
المواجهة بين التتار والدولة الخوارزمية

كان السلطان محمد يميل إلى القتال حتى أنه كثيرا ما تولى قيادة جيوشه وخاض معها معارك شرسة على متن جواده الأثير والمحبب إلى نفسه الذى تزين بسراج مرصع بالجواهر من الياقوت والماس واللآلئ البراقة الجذابة الساحرة.

بعد أن استمع السلطان إلى شكوى الوفد خرج إلى قادة جيشه للتباحث معهم بشأن التتار الذين أضحى خطرهم قاب قوسين أو أدنى من أقاليمه وأن الوقت قد حان لوضع حد لتجاوزاتهم قبل أن يستفحل هذا الخطر ويحدث ما لا يحمد عقباه وقبل أن يسبق السيف العزل.

وبعد أن أنهى السلطان مشاوراته مع قادة جيشه وأمراء بلاطه تقدم جيشه لتعقب جيش التتار وتأديبه على المذابح التى ارتكبها فى حق الطائفة التى تنتسب إليها والدته كانت خيول الكشافة والطلائع تتقدم الحملة ومركب الشاه فى وسط الحملة ومن وراءه قوات الهجانة تحمل خيام الشاه وأسرته ولوازمه.

أما فى مؤخرة الحملة فتوجد فرقة من فرسان التركمان يترأسه أكبر أبناء السلطان محمد وهو الابن جلال الدين خان.

وكانت الحملة تسير بمحاذاة شاطئ بحر حوارزم وقد أمر الشاه بعد مرور عدة أيام بوقف السير طلبا للراحة والاسترخاء حرصا على صحة جنوده وجيادهم فضلا عن استكشاف الأمر عبر رجال الكشافة والجواسيس.

وأثناء الراحة التى طلبها الشاه لنفسه ولجيشه راح يقتل فراغه فى ممارسة الصيد والقنص لاسيما وأن بحر خوارزم يتميز بطيور البحر البيضاء.

وبعد مرور بضعة أيام أقبل الكشافة وفى حوزتهم معلومات تستدعى أن تصغى إليها أذن الشاه بنفسه لاتخاذ ما يلزم حيالها.

ومن خلال بيانات ومعلومات فرقة الكشافة أمر السلطان محمد مجلس الحرب لاجتماع طارئ لوضع خطة الهجوم على مواقع جيش التتار.

كانت الخطة التى رسمها مجلس الحرب تعتمد على تقسيم الجيش إلى ثلاثة أقسام على أن يكون القسم الأول فى الجهة اليمنى ويترأسه الأمير جلال الدين خان فيما يقود أمير الكبشاة القسم الثانى المتمركز جهة اليسار على أن يظل القسم الثالث الذى يقوده الشاه بنفسه فى الوسط لدعم القسمين حال الضرورة والحاجة الملحة حيث أراد الشاه من وراء ذلك الوقوف على معرفة قدرات ومهارات ابنه الأكبر جلال الدين خان بوصفه ولى العهد وهل سيتمكن من القيادة أم أنه سيتراجع ويخفق فى أداء دوره المفرط به؟ وحين فرغ مجلس الحرب من شرح خطته على القادة والجنود انطلقت الحملة تعاود مسيرتها لتعقب التتار وقتالهم أخذا بالثأر لطائفه الكشافة.

بلغت الحملة الجرارة نهر أرغيز وقد احتاط السلطان وأبدى مخاوفه من اكتشاف العدو لحملته فأصدر أوامره باتخاذ كافة الاحتياطات اللازمة حتى لا يتمكن العدو من رصد تحركات جيشه فتفشل خططه ويتعرض لهزيمة ساحقة.

وبمرور الوقت وبعد أن اطمئن السلطان محمد من أن الأمور تمضى وفق آماله وتطلعاته تقدم قواته على صفحة مياه إحدى البحيرات على متن الجمال والخيول وسرعان ما عاود المسير مرة أخرى وعند أحد الأودية الضيقة الواقعة بين تلين اكتشف فرق الاستطلاع والكشافة أن أثار جنود الطغاة تشير إلى أنهم كانوا فى هذا الوادى منذ قليل وهو ما يبرهن على أن جيش التتار على مقربة من قوات السلطان محمد.

فى تلك اللحظات الحرجة والدقيقة هرع رجال الكشافة أعلى التل المرتفع لرصد تحركات العــدو وقد أشار قائدهم إلى قـوات الجيش بمتابعة السـير دون توقف وقد فوجئ الجيش عند أحد السـهول بوجود آلاف الجثث التى تحولت إلى أشلاء متناثرة.

كان المشهد الدامى مروعا ومفزعا للسلطان محمد الذى هاله سقوط الآلاف من عشـيرة والدته الذين تمزقت جثـثهم على يد مصاص دمـاء تطرب نفوسهم سـاعة الذبح والتـمثيل بالجـثث وترقص قلوبهم فى بهـجة وسرور إذا مـا تناثرت الرؤوس لتغـوص فى بحر يفـيض بالدماء وأمواجـه تنبعث منهـا صرخات وأهات الضـحايا المساكين!!

ومن بين تلك الجـثث الملقاة والرؤوس المقطـوعة والدمـاء المتدفـقة والصـرخات المدوية والتى اندثرت وتلاشت إيذانـا بعودة أرواح هؤلاء الشـهداء إلى بارئهـا ظل أحد هؤلاء الجرحى يئن ويبكى ويسـتغيث بجيش السلطان محمـد وقد التقطه أحد جنود السلطان الذى حمله على كـتفيه محاولا الوصـول به إلى المقر الخاص بمداواة جرحى المعارك.

وحين نما لعلم السلــطان أمر هذا الجريح المسكين انطلق كـالسهم حيث يتـمدد الجندى النازف للاستماع منه على ما جرى بوصفه الجندى الوحيد الذى نجا من تلك المذبحة البشعة والمخيفة.

وأمام ذلك الجندى الجريح جلس السلطان ومن حوله رجاله.وحراسه لتوفير سبل الراحة والأمان والهدوء لحضرة سيد العالم وسلطان الدولة العريقة.

وراح المسكين يقص مأساته مـوجها حديثه للسلطان وهو ينتـحب ويتوجع قائلاً سيدى السلطان أعزك الله وحفظك لرعيتك يا حامى ديار الإسلام.

إننا أبناء عشيـرة من طائفة الكيشاق وهى كـما تعلم تتسم دون غيرها بضـخامة العـدد. لكنها الآن فـقط يا سيـدى السلطان قد اندثرت ولم تعـد لها قـائمة بـعد أحداث هذه المذبحة التى لم تشهدها الدنيا من قبل.....

وأضاف الرجل وقـد تبللت لحيته بالدمـاء واغروقت عيناه بالدموع «كـان يقودنا زعيم يدعـى «تكتوخان» وقـد لاذ بالفرار برفـقة ابنه الذى تميـز دون غيـره بالمهارة والبراعـة فى الرماية وقـد نصحنا هـذا الزعيم بتـبعه فى الهـرب إلى منطقـة سهل الكبشاق الكبيـر فى الضفة الأخرى من النهر إيثارا للسلامـة وأملا فى النجاة وطلباً للحياة وهربا من الموت الذى كان يلاحقنا ويطاردنا بلا هوادة.

واستطرد الرجل من جانبنا لم نتردد إزاء المذابح التى تجـرى من حولنا لاقتفاء أثر زعيمنا وشرعنا فى الهرب معه بالفعل بيد أن جيش التتار ظل يلاحقنا ويطاردنا حتى أدركونا وانقضوا علينا كـأنهم نسور جارحة جائعة لا هم لهـا سوى افتراس من يقع بين أنيابها.

لقد كان عدد هؤلاء التتار الذين وقعنا بين أياديهم لا يقل بحال عن عشرين ألف يمتطى كل واحد منهم خيلاً تتصف بالقوة والبأس رغم صغر بنيانها.

كان الرجل يروى وجيعته بينما كان السلطان محمد يتميز غيظا مما يسمع وقد بدا لمن حوله غارقا حتى أذنيه فى بحر هائج مضطرب.

وعاود الرجل يروى ما جرى له على يد التتـار قائلا «كنا يا سيدى السلطان على وشك الوصول لحـافة النهر وكنا قاب قـوسين أو أدنى من العبور لولا أن النـهر قد كساه الجليد الأمر الذى أعاق عبورنا فسقطنا كالعصافير فى فخاخهم فقطعوا رؤوسنا ومثلوا بجثثنا وأسالوا منا الدماء التى تدفقت كسيل منهمر.

وفى حسـرة بدت جلية على صوت الرجل المتحشرج راح يقـول «لم يتبق من سلالتنا نحن الكبشاق سوى شخص واحد فقط مازال على قيد الحياة.

فصاح السلطان محمد قائلاً: من الرجل تقصدلله

أجاب المسكين أقصد يا سيـدى السلطان بذلك ابنة الخان الصغرى «قولان» تلك الجميلة التى تزوجت من جنكيز خان».

أثناء ذلك تقدم أحد الكبـشاق قائلا بصوت عال.. تقدم جيـشا سيدى السلطان العظيم إلى هؤلاء الهمج وسوف نلقنهم درسا سيظل محفورا فى رؤوسهم ما داموا أحـياء على وجـه الأرض.. لم يلتفت الـسلطان إلى صاحب الصـوت الجهـورى واكـتـفى بهز رأسـه وهو يقـول فى نبـرات لا تخلو من الأسى والحـزن والضـيق «حسنا.. سوف نمضى إليهم عندما تحين اللحظة المناسبة.

* * *

واصل جيش السلطان مـحمد تقدمه لـتعقب المغول وعند سفـح تل كان الجيش يمشى على منحدره لاحظ الكشافة خياماً منصـوبة وتراءى لها جمال تلتهم طعامها وترامى لسماعهـا صهيل الخيول وغناء بعض جنود التتار لتبـديد الوقت والترفيه عن أنفسهم.

وعلى الفور أبصرت فرق الكشافة التابعـة لجيش المغول مقدمة الجيش الخوارزمى الذين أبلغوا قادة جيـشهم بالأمر فاجتمع مجلس الحـرب المغولى للتباحث فى هذا التطور المفاجئ والخطير وانـتهى مجلس حرب المغول بإيفـاد رسول من بينهم يحمل رسالة سلام واستفسار إلى الشاه السلطان محمد.

وانطلق قرابة ثلاثين فـارسا إلى جيش المسلمين يتقـدمهم رجل طاعن فى السن أبيض اللون أزرق العينين ذو لحية طويلة اعتنى بتهذيبها يمتطى جواداً يتميز عن جياد

المغول بطول قوائمه وضخامة جسده وقد قدم نفسه بوصفه مسلماً مغولياً يرغب فى لقاء السلطان حيث يحمل إليه رسالة من ابن جنكيز خان.

وفى حراسة رجـال الجيش تقدم الرسول ليقف بين يدى السلطان مـحمد وراح الرجل فى أدب مـصطنع يضع يديه على صـدره وقد أحنى ظهـره وهو يدنو من حضرة السلطان الـذى كان يمتطى جواده الأثير وقـد خيم السكون على المكان فى انتظار ما الذى سيعرضه هذا الرسول المغولى.

وبعد أن أشار السلطان وسمح للرسول بالحديث انبرى الرجل قائلاً:

إن أميـر الجيوش المغـولية، صاحب السـمو (يوشى خان) ابن صـاحب العظمة (جنكيز خان) قد أوفدنى أنا مترجمـه الخاص أن أحمل لجلالتكم تحيته العاطرة وهو يسألكم بكل تقدير واحترام. لماذا يتعقب جـيش خوارزم الشجاع جيش المغول حتى أنه قطع الليل كله سائرا بأقصى ما يمكن حتى غشى علينا الأمر؟!

وأنهى الرسول جوهر رسـالته الاستفـسارية فى انتظار ما سوف يحـمله معه فى طريق عودته للرد على سؤال سيده ابن جنكيـز خان وظل الرسول يتفحص الأرض فيما كان السلطان يـرمقه بنظرات حادة وعنيفة ذات معنى استعـماها الرجل طواعيه الذى عاود يحدث عظمة السلطان قاطعـا حبل الصمت الذى ران على المكان قائلاً وهو ينحنى:

لقد أمرنى الأمير يوشى أيضا أن أقـول لكم أن والده القائد الذى لا يقهر جنكيز خان هو الذى أصدر أمره لمعاقبة هذه القبيلة وتـأديبها لخروجها على طاعته وبالفعل قام جيش نظمه جنكيز خان يسحقها سحقا حتى لا تقوم لها قائمة مرةأخرى.

واستطرد الـرسول، أننى أبلغ عظمـتكم أن الجيوش المـغولية البـاسلة فى طريق عودتها لبـلادها ولعلمكم يا عظمة السلطان فقد أمرنا جـلالة الملك جنكيز خان أن

نحفظ دوما على روابط وأواصر المودة بيننا وبين عظمتكم أينما التقى الجيشان. . وقد رأى الأمير يوشى ابن فخامة جنكيز خان وقائد جيوشه أن يبرهن على صدق نواياه المخلصة حيالكم باقتسام الأسرى والأسلاب مع جيش عظمة السلطان البادى شاه.

وهنا راح السلطان يقطع صمته ويفك عقدة لسانه قائلا لرسول التتار بلهجة حادة وعنيفة وذات معنى بليغ.

أسمع أيها الرسول . . . هلا أبلغت أميرك: أنه إذا كان جنكيز خان قد أمره ألا يقاتلنى فإن ربى رب الأرباب الجبار القهار ملك الملوك قد أمرنى أن أقاتله ولا أهادنه.

استولت الدهشة على وجه رسول التتار وحين حاول أن يستفسر مما قاله عظمة السلطان محمد أشار إليه عظمته بالعودة إلى جيشه رافضا الاسترسال فى الحديث معه.

وقفز الشيخ المعمم ورسول التتار على صهوة جواده وقد وخزه فى عصبية تجلت على ملامحه فأطلق الجواد ساقه للريح وكادت حوافره تغوص فى أعماق الأرض من شدة قوته التى لاحظها السلطان ورجاله وقادة جيشه.

وسرعان ما بدأت المعركة بين الجيشين الكبيرين وقد راح الشاه محمد يعاود الإفصاح عن جوهر خطته وكيفية تقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام ثم توجه إلى قمة التل لمراقبة ما يجرى أمامه بين الجيشين.

وعلى قمة التل جلس السلطان محمد على فراش وثير من حرير والتف حرسه وخدمه حوله لتوفير راحته وأمنه وقد اصطفت أمامه أوانى ذهبية وأطباق براقة امتلئت بأشهى وألذ أنواع المأكولات والمشروبات والفاكهة.

أما ابنه الأمير الفارس جلال الدين خان فقد راح يتأمل ميدان المعركة وقد استدعى أحد قواد ويدعى (قرة قونشار) الذى شرح له جلال الدين تفاصيل الخطة وكيفية تنفيذ جميع عناصرها على أرض الميدان.

وفى معرض شرحه قال جلال الدين للقائد قرة فونشار الذى كان يرهف السمع ويتأمل الأرض خوفا وأدبا حيث لا ينبغى أن يطيل النظر فى وجه ابن سيد العالم أن الجريح الذى ظل على قيد الحياة ونجا بنفسه من هول تلك المجزرة البشعة أكد خلال عرضه لنا أن عدد جيش التتار يبلغ نحو عشرين ألفا فإن حدث مثلا أن شن نصف هذا العدد هجوما على القسم الأيمن من قوات جيشنا كان عددهم حينئذ لا يتجاوز عشرة ألاف فيما أن عدد أجنادنا يبلغ ستة آلاف من التركمان وخمسة ألاف من جند أخر يتبعون عشيرة الغيتان وهم يدورون فى فلك الشاة من أجل مقاومة الجوع وجمع الغنائم وهم لا يتميزون بالشجاعة والبسالة كالتركمان ومن ثم أرى أن أدفع بهم إلى المقدمة لينالوا الضربة الأولى وسوف يرحبون بذلك ظنا منهم أنهم سيكونون أول من يضع يده على الغنائم وإن كنت أظن أن المغول الذين أخبرنا عنهم الرجل الجريح أنهم كالنمور الشرسة سوف يمزقون هؤلاء إربا وسيخترقونهم لكى يشتبكوا معنا ومن ثم علينا أن نأخذ حذرنا ونتأهب لتلك المواجهة التى ستقع حتما.

ومضى جلال الدين يشرح ما يدور فى رأسه للقائد قرة قونشار قائلاً والخوف من مواجهة المغول يتملكه.. «فى الجوانب الأخرى علينا أن نقذفهم فى هذا المستنقع العميق الموجود هنا حتى تغوص سيقان خيولهم فى الطين المبلول ليتسنى لنا القضاء عليهم بصورة نهائية ثم نتنظر فى تلك اللحظة الدعم الذعى سيبعث به والدى.

واستدار جلال الدين إلى حرسه وهو يقول:

هيا يا رجالنا البواسل عليكم أن تهرولوا إلى مضارب التركمان واعلنوا لهم أنهم سوف يقاتلون تحت راية القائد قرة قونشار أسد الكراكوم وبطل التركمان المعروف وانطلق رسله لإبلاغ رسالته فيما اتجه قرة قونشار إلى رؤساء الفرق والكتائب لكى يشرح لهم الخطة العسكرية ثم وقع اختياره على نحو ثلاثة آلاف من فرسان التركمان وتقدم بهم للتمركز وراء التل فى انتظار قدوم المغول الذين سوف يسحقون جنود الغتيان الذى نصبهم جلال الدين فى المقدمة.

فى تلك الأثناء اتجه جلال الدين إلى كتائب الغتيان التى تصدرت مقدمة الجيش وراح يثير حماسهم عبر كلمة موجزة قال فيها «يا جنود الغتيان البواسل. . . أنتم أسود وفهود ونمور ما صارعكم أحد إلا وخاب أمره. . وما ناصبكم العداء إلا ذل. . وها هى جنودنا البواسل مضارب معسكر المغول تبدو أمامكم وقد اكتظت الغنائم الثمينة التى اغتصبوها كرها وقسرا وظلما وجورا فهلا يا جنودنا البواسل الأشداء الشجعان استرددتم هذه الغنائم وأستطيع أن أؤكد لكم أيها الشجعان أن ما سوف تصل إليه أياديكم هو ملك لكم. . اذهبوا على بركة الله النصر حليفكم.

أسرع الجنود الذين ثارت حميتهم إلى جيش التتار لملاقاته وسحقه وسلب غنائمه والعودة بها إلى حيث يقطنون بعد أن وعدهم جلال الدين بأن ما سوف يحصلون عليه سيكون من نصيبهم جزاءً لهم.

* * *

وبدأت الملحمة بين الجيشين بهجوم شنته إحدى فرق المغول الذين اشتبكوا مع جند الكبشاق وقد أحاط الكبشاق بفرقة التتار وحاصروهم داخل دائرة استعصى على التتار الخروج منها.

أثنا ء ذلك انطلق أول فيلق مغولى ويضم نحـو ألف من الفرسان الأشداء الذين يتميزون بالخفة والرشاقة وسرعة البديهة والتناغم والتفاهم والالتزام.

وعلت صيحات الفيلق المغولى الشهيرة «هوووووه» وسرعان ما تبع هذا الصوت أصوات أخرى هزت الأرجاء من هولها وكأنها زئيـر أسود جائعة حيث ظهرت نحو عشرة فرق مغولية أخرى تقدمت فى صفوف منتظمة ومتناسقة تتلألأ سيوفهم البراقة وتلمع فى انتظار ضحاياها..

لم تقف الأمور عند هذا الحـد فحسب بل انطلق أكـثر من ألف فارس مـغولى أخر قاصداً جيش السلطـان وبدا الاضطراب يسود جيش السلطان الذى انهمك فى إحكام قبضتـه على الفرقة المغولية الأولى فى حين انهمك جيش الغـتيان فى البحث عن غنائم ظنا منه أن الدائرة سوف تدور على التتار.

كان الجـيش المغـولى يتسم بالنظام والدقـة والروعة فى الأداء من حـيث القـتال وتنظيم الصفـوف وتنفيذ بنود خطتـه بدقة أذهلت السلطان محمـد الذى كان يرقب المعركة الحاميـة وهو يتناول بعض المأكولات حتى ألقى بها جانبا ليتـأمل سير المعركة بعد أن أدرك مغبة المواجهة مع هؤلاء التتار.

لاحظ السلطان محمد أن قوات جيشه تلـتف حول نفسها وقد بدت تائهة حائرة ذاهلة ما لها من قـرار حتى راح السلطان من هول ما رأى يعبث فى لحيـته السوداء وهو يتميز غضبا وقد صاح قائلا لشـيخ الجامع الكبير فى حرجان الذى كان يجالسه لمتابعة سير المعركة «يا إلهى ما هذا.. بـالذى رفع السماء بغير عمد لم أر مثل هذا الأمر من قبل.

فى تلك اللحظة وقـبل أن يفرغ الشاه من كلمـته لاحظ كـبير اليـاوران أن فرق المغول تزأر بصيحتها الشهيرة المرعبة هوووووه «وهم يتقدمون نحو قمة التل لضرب قلب الجيش السلطانى واغتيال الشاه محمد.

ما من شك أن الرعب استولى على السلطان الذى نهض من مجلسه الوتير وهو يبحث عن تيمور مالك القائد الذى أطلق ساقه للريح للاشتراك فى المعركة بعد أن لاحظ تراجع قوات الجيش السلطانى.

وعلى الفور أحاط حراس الشاه بعظمته لحمايته والحفاظ على حياته من سيوف المغول ورماحهم الذين أسرعوا الزحف فافترق صفوف الحرس وصعدوا إلى قمة التل لمواجهة السلطان محمد الذى أصابه الذهول.

وأمام تطور الأحداث وتصاعد حدتها بصورة مفزعة قفز السلطان محمد على ظهر جواده ليلوذ بالهرب طلبا للنجاه من سيوف المغول وتبعه رجال حاشيته وحرسه الخاص يسعى كل منهم للبحث عن مأمن له من وحشية المغول.

أما المفاجأة المذهلة فقد كان بطلها الشيخ الذى كان يجاور الشاه فى مجلسه بوصفه شيخ الجامع الكبير فى جرجان والناصح الأمين للشاه وأخلص خلصائه وأقربهم إلى نفسه حيث ظل الرجل جالسا فى موضعه وحين اقترب منه جنود التتار أخرج من سترته أسطوانة ذهبية لوح بها لفهم مغزاها.

وكانت الأسطوانة الذهبية تعنى أنه من خلصاء وأصفياء ملك التتار جنكيز خان حيث اعتاد على توزيع هذه الأسطوانة على من يحسن الظن بهم ويدينون له بالولاء.

على الفور انطلق أحد جنود التتار لإخبار القائد الأمير يوشى بالأمر وأقبل على الفور لاستطلاع الموقف واستكشاف حقيقته.

وأمام يوشى وقف الشيخ الخائن يقول بصوت متبهج:

أنا يا سمو الأمير من أخلص رجال والدك الملك العظيم جنكيز خان وأعمل معه سراً منذ ثلاث سنين وقد أرسلت العديد من المعلومات الدقيقة والخطيرة والمهمة

فى مطلع كل شهر إلى أحد قواده المرابطين على الحدود الصينية.. والأن أرجو منكم أن تصحبونى معكم حتى أتمتع بالأمن بعيدا عن أذى الشاه وحتى يتسنى لى خدمتكم عند الفتح العظيم!!

فكر يوشى ابن جنكيز خان ثم عاد يقول فى حزم كلا.. كلا أيها الشيخ العظيم.. إننا لا شك فى أشد الحاجة إلى خدماتك العظيمة لكن كما أنت ولا تخشى شيئا أرجوك لا تترك الشاه وعليك أن تحرص على استمرار تلك العلاقة وأن تحافظ على ثقته وأن تكون أهلا لها أمامه حتى تستطيع أن تزودنا بالبيانات والمعلومات الخطيرة والمثيرة والدقيقة.

وهز الشيخ الخائن رأسه بالموافقة على اقتراح الأمير يوشى ابن جنكيز خان للمضى قدما فى مهمته القذرة.

أثناء ذلك كانت قوات جلال الدين خان قد حاصرت قوات المغول واشتبكوا معهم مرة أخرى بهدف دفعهم إلى المستنقع العميق الذى كان يتطلع إلى سحق وإبادة جنود التتار بواسطتها كما أشار بذلك إلى القائد قرة قونشار قبل اندلاع المعركة.

اشتدت المعركة وحمى وطيسها حتى أوشك الليل على أن يرخى سدوله عليها وقد أبلى التركمان والغتيان بلاء حسنا على غير ما كان منتظرا منهما.

وعندما حل الظلام الدامس تراجع كل فريق إلى مضاربه فى انتظار تباشير الصباح الجديد لمعاودة القتال مرة أخرى.

وحين عاد جيش التتار إلى خيامه أصدر يوشى جنكيز خان أمره بالعودة إلى بلاده بدلا من إهدار طاقة جنوده مع جيش السلطان لحين إبلاغ جنكيز خان بالأمر وانتظار أوامره.

وبالفعل انطلقت جحافل المغول إلى بلادهم وقد أوقدوا مواقد نيرانهم لإيهام جيش السلطان أنهم باقون حتى الصباح فى انتظار المعركة الحاسمة والفاصلة.

فى ذلك الوقت كان جلال الدين خان قد التقى والده السلطان محمد الذى كان قد لاذ بالهرب دون أن يعبأ بمن حوله أو يبالى بمقامه الرفيع ومكانته المهيبة وراح جلال الدين يبلغ والده رغبته فى أن يزحف الآن على جنود التتار لذبحهم كالخراف قبل طلوع النهار لضمان النصر على هؤلاء الذين لا يمكن إبادتهم وسحقهم إلا بالانقضاض عليهم فى جنح الليل بضربة مفاجئة لا يستطيعون صدها ولا يقدرون على ردها.

لكن السلطان محمد الذى كان قد خارت قواه وكاد يفقد حياته لا يزال عاجزا عن التفكير واتخاذ القرار الصائب ومن ثم استدار بوجهه بعيدا عن الأمير جلال الدين وهو يقول غدا سوف نقاتلهم إننى لم أر لهم مثيلا فى حياتى.

فأجابه جلال الدين قائلا «لكن هذه فرقة واحدة يا والدى من فرق التتار فما بالك إذا كان جنكيز خان نفسه على رأس جيشه العرمرم؟!

فعلق السلطان محمد فى أسى قائلا: إن هؤلاء التتار لاشك يتميزون بالرشاقة والسرعة وقوة البأس بل أعجبنى صبرهم وثباتهم وشراستهم وعشقهم للقتال.

فعاد جلال الدين يقول مخاطبا والده:

أخشى ما أخشاه أن تعجز عن سحقهم فى الغد يا والدى فقال السلطان محمد بنبرات لا تخلو من الثقة بالنفس والتحقير من شأن التتار.

هذا عبث واستخفاف منك يا جلال الدين.. إن هؤلاء التتار لن يتجاسروا بعد اليوم على مواجهة جيشنا أو حتى إثارته أو التفكير مجرد التفكير فى مهاجمة أى من ممالك بلادنا الواسعة..

هل أنت على يقين من هذا الأمر يا والدى السلطان؟

نعم وسوف ترى أن هؤلاء القوم سيفكرون بعد الآن ألف مرة قبل أن يتحركوا لإثارتنا ومحاربتنا.

وفى الصباح انطلقت جيوش السلطان محمد نحو مضارب التتار ليتبين لها أنهم قد عادوا أدراجهم خوفا من المواجهة الأمر الذى اعتبره السلطان ورجال جيشه انتصاراً ساحقا ماحقا يستحق الابتهاج والاحتفال به بما يليق بعظمة السلطان القائد المحنك!!

* * *

الفصل الرابع
هدوء ما قبل العاصفة

حين حطت الفرق العسكرية المغولية بين يدى جنكيز خان وقص عليه ولده يوشى وقائع المعارك العسكرية مع الكبشاق والمعركة الأخيرة التى خاضتها قواته مع السلطان محمد كاد جنكيز خان يفقد صوابه وقرر أن يقود حملة ضخمة لتأديب الشاه الذى تجاسر على مقاتلة جيشه.

وبعد أن هدأت عاصفة الغضب التى اجتاحت حنكيز خان قرر أن يتريث لحين الوقوف على حقيقة قوة الجيش السلطانى وكيفية سحقه بأقل الخسائر وإبادته واحتلال ممالكه والسيطرة عليها وضمها إلى مملكة الخاقان سيد العالم جنكيز خان.

وفى أعقاب الاحتفالات التى أقامتها الدولة الخوارزمية بمناسبة انتصاراتها على السلطان عثمان أمير سمرقند الذى أعلن العصيان على السلطان محمد والانتصار الذى حققه الجيش الخوارزمى على التتار قرر السلطان محمد فتح بلاد فارس حتى يتمكن من إسقاط الخلافة العباسية لتدين له بغداد بالولاء وتصبح ضمن مملكته.

كان السلطان محمد يتطلع إلى أن يصبح خليفة المسلمين وسلطانهم الوحيد بلا منازع وبالطبع لم يكن ذلك ممكنا إلا بزوال الدولة العباسية بعد إبادة الدولة الفارسية.

وقرر السلطان البدء فى تنفيذ مخططه ومن ثم أرسل قوات جيشه الضخم إلى بلاد فارس بيد أن البرد الفارسى قد أعجزهم عن القتال وأصابهم بالإجتهاد والشلل التام حتى لاحت الفرصة أمام الأكراد الذين انقضوا عليهم فى بهيم الليل حتى سحقوا الجيش وأبادوه وقضوا عليه الأمر الذى أدى إلى زعزعة ثقة السلطان محمد فى قوة جيشه الذى كان يظن أنه لا يقهر!!

وفى خريف ١٣١٩م قرر جنكيز خان أن يوطد روابط الصداقة والتعاون بينه وبين حضرة السلطان محمد فى بادرة تبرهن على حسن النوايا والتطلع إلى البدء فى صفحة جديدة بين البلدين وطى الصفحة التى تلطخت بدماء الجيشين.

وبالفعل أوفد عظيم التتار جنكيز خان وفدا رفيعا وصل إلى أقليم بخارى للقاء حضرة سلطان البلاد لاستلام رسالة الصداقة والتعاون التى بعث بها ملك الغول جنكيز خان.

كان الوفد المغولى يترأسه التاجر الثرى الشهير آنذاك محمود غلوش الجرجانى (المسلم) ومعه تاجران آخران من أغنى وأشهر وأمهر التجار المسلمين.

وأما الهدايا التى كان قد حملها الوفد المغولى إلى البادى شاه خوارزم فهى عبارة عن قافلة تتضمن نحو مائة جمل من الأوانى المعدنية الثمينة وقرون الخرتيت وبراميل ضخمة من عطور المسك وصناديق مكتظة بالمرجان الأحمر والأصفر وأقمشة مصنوعة من الحرير الشفاف المطلى بالذهب وأخرى نادرة يندر وجودها منسوجة أوبار الأياك والإبل فضلا عن سبيكة كبيرة هائلة من الذهب الخالص قيل إنها كانت فى حجم عنق الجمل كانت محمولة بمفردها على متن عربة جميلة تزينت بالورود والألوان الزاهية كان الشاه محمد جالسا على كرسى عرشه المذهب الفخيم وبجواره وقفت حاشيته الضخمة يرقبون ما يحدث وحين تقدم السفراء الثلاثة نحو حضرة السلطان ركعوا جميعا إمعانا منهم فى إجلالهم لعظمة سلطان البلاد وراح التاجر البارز اللامع المعروف محمود غلوش الجرجانى يتحدث نيابة عن الوفد بوصفه الأكبر سنا حيث بدأ حديثه للسلطان قائلا:

إن السلطان العظيم والخاقان جنكيز خان قد أوفدنا إلى عظمتكم لتعميق أواصر المحبة والمودة والصداقة وحسن الجوار بين مملكتيكما العظيمتين وقد حملنا لعظمتكم تحية عاطرة وأمرنا أن نبلغكم بأمر رسالته هذه كما هى دون تصرف منا.

وأخرج محمود غلوش الرسالة وقدمها إلى السفير الذى يقف على يمينه ويدعى خوجة البخارى الذى بادر بفتحها ثم راح يقرأ ما ورد بها بصوت عال على هذا النحو: «إننى أعرفَ جيدا علو شأنك ورفعة قدرك وسمو مكانتك واتساع رقعة ملكك.. وأعلم أن سلطانك يستظل به الجانب الأكبر من المعمور.. لهذا رأيت الخير كل الخير فى ضرورة تعميق وتوثيق أواصر الصداقة بيننا أيها الشاه.. لأنك عزيز على عزة أغلى ولد من أولادى.

وكأن بركانا قد انفجر ليلقى بحممه وجمراته ونيرانه وحصاه الملتهبة حيث ثار الشاه وهاج وماج وأرغى وأزبد ونهض وجلس وصاح فى خضم ثورته الغاضبة قائلا وهو ينظر شذرا إلى الوفد المغولى قائلاً:

ولد؟ . . . أيقول ولد؟

وبحركة عفوية بدت لمن حوله لا إرادية وضع يده على خنجره ثم سرعان ما أعادها مرة أخرى دون أن يخرج خنجره ثم أمر السفير محمود البخارى باستكمال ما ورد فى تلك الرسالة وراح السفير يقرأ ما جاء بها بالنص قائلاً:

ولعلمك أيها الشاه أننى قد غزوت أمبراطورية بلاد الصين واستوليت على عاصمتها الشمالية كما أننى غزوت تلك البلاد التى تقع على حدود بلادك.. ولاشك أنك تعلم أكثر مما يعلم غيرك أن الأرض التى يحتلها جيشى الذى لا يقهر أرض ثرية بمناجم الفضة وأنها تتميز بثرائها الواسع فى محصولاتها الزراعية التى لا يمكن حصرها ومن ثم لا أرانى فى حاجة إلى المغانم والأسلاب خارج حدود بلادى.. فإذا طاب لك أيها الشاه فإنى أرحب أن نعقد معاهدة تجارية يمكن بمقتضه بنودها ترويج المتاجر بين مملكتينا دون أية عوائق على أساس حرية التجارة للتجار من كلا البلدين وذلك كما ترى أيها الشاه سوف يجلب الخير الوفير لشعبينا».

انتهت الرسالة وخيم السكون على المكان فى انتظار ما سوف يدلى به السلطان ردا على ما ورد فى سطور تلك الرسالة ويبدو أن السلطان قد أوعز لكبير الياوران بانهاء الأمر لحين التفاهم على إبلاغ الوفد بالموقف مما جاء فى الرسالة.

واتجه كبير الياوران إلى محمود غلوش وهمس فى أذنه قائلا له. . . لا عليك الآن. . لقد انتهى الاستقبال ومولانا السلطان على موعد آخر فى أمر عاجل وعليك أن تصطحب معك رفاقك إلى حيث ستقيمون وسوف أتوجه اليك ليلا لإبلاغك بما سيمليه على حضرة السلطان استجاب محمود غلوش لتعليمات كبير الياوران وانتظر رجال السلطان لإرشاده إلى حيث يقيم هو ومن معه.

وانطلق الوفد المغولى وراء أحد رجال السلطان لتوجيههم إلى مقر سكنهم وإكرام ضيافتهم بأشهى وألذ الأطعمة والمشروبات.

وقبل أن يؤذن المؤذن لصلاة الفجر التى كانت قد أوشكت تسلل حاجب كبير الياوران إلى قصر الضيافة الذى يقيم فيه محمود غلوش لاستدعائه سرا بعيدا عن عيون رفاقه. .

خرج محمود مزعورا لا يدرى ماذا ينتظره لاسيما وأن الشاه قد استبد به الغضب لما ورد فى رسالة جنكيز خان وساورت الظنون محمود غلوش ولم يعد يدرى هل سيبقى على قيد الحياة أم أنه قد أصبح فى عداد الموتى جزاء، له على رئاسته لوفد ملك متغطرس تملكه الغرور واستولى عليه الكبرياء؟! لكن لاحظ محمود أن كبير الياوران يقف فى مدخل القصر وقد همس له أنه سيأتى معه لأمر مهم وهو ما زاد شكوك محمود غلوش فى مصيره المنتظر.

وقطع الخيل شوارع المدينة حتى وقف أمام باب ضخم شيد من حديد ومطارق ذهبية وقد طرق كبير الياوران طرقة معروفة لرجال السلطان دون غيرهم حتى انفتح

الباب على مصراعيـه وتقدم كبير الياوران ومن وراءه محمـود غلوش سفير جنكيز خان فاجتازا حديقة كبيرة واسعة تحتوى على بحيرات يعوم فيها البط فى منظر ساحر وبديع تتلألأ فـيه الأضواء عبر شـمعدانات جمـيلة بداخلها شموع كبـيرة صنعت خصيصا من شهد النحل..

كان السلطان محمـد جالسا على وسادة من الحرير واقترب منه السفـير محمود غلوش منحينا فى أدب جم وأدى التـحية الواجبـة له حتى أشار إليه قـائلا «تعال.. اقترب منى فإن لدى أموراً خطيرة وشديدة الأهمية أحب أن أتباحث معك فيها..

وكمـا علمت أنك لست منغـوليا وأنك من رعـاياى وأنك أيضا مـسلم مـوحد ومؤمن بالله ورسوله وكتبه ومـلائكته واليوم الآخر وبالطبع لا تشرك به أحدا.. من هنا أطالبك الآن بأن تبرهن لى صدق ولائك لدينك وبلادك التـى تنتمى إليها وأنك أبدا لن تبيع نفسك لأعداء الدولة والإسلام.

جثا مـحمود على ركبـتيه ذليلا وقـد ارتمى على أقدام الشاه محـمد وهو يقول ويطيب لى يا مـولاى عظمـة السلطان أن أخدمك بـدمى وروحى ونفسى ومـا لى فالنفس والنفيس فداء للإسلام وعاهل البلاد، فتهللت أسارير السلطان الذى أردف يقول لسفير جنكيز خان الراكع الذليل:

عليك إذن أن تجـيب على جميـع الأسئلة التى سوف تـوجه إليك فإذا تبـين لنا صدقك فسأكافئك وهذا مقدم لمكافـأتى لك تصديقا لوعدى معك كان السلطان قد ألقى بلؤلؤه انتزعـها من قلادته وأعطاها له وعـاد يقول له وقد اكفـهر وجهه فـجأة «لكن عليك أن تحذر فـإنه إذا تأكدت من كـذبك وخيانتك فـإنك لن ترى شمس الصباح الوليد هل تعى ما أقول أم أنك تجهل ما أنطق به؟

عـفوا يا مـولانا السلطان أنا على أتم الاسـتعـداد لأن أكون خـادمك المطيع يا مولاى.. وما عليك سوى أن تأمرنى لأطيع أمركم السامى..

علق الشاه محمد قائلاً بنبرات تتسم بالحزم والحسم والصرامة والقوة والشدة والصلابة قائلا:

أريد منك يا غلوش أن تدلى لى بكل التفاصيل الكبيرة والصغيرة التى تتعلق بأدق أسرار جنكيز خان وبلاده وجيشه على أن تبقى دائما عينى وأذنى عند جنكيز خان وألا تتكاسل فى إبلاغى بواسطة رسول مخلص أمين عما يدور هناك بتقارير تشرح فيها كافة الأراء والبيانات والمعلومات الدقيقة والخطيرة والمهمة التى لاشك تتعلق بحياة جنكيز خان وجيشه ومخططاته.. فهل تقسم بأغلظ الإيمان أنك سوف تكون مخلصا وأمينا أم أنك سوف تتخلى عما وعدتنى به حال عودتك إلى بلاد جنكيز خان؟

راح محمود خان يضع يديه على لحيته وقد ترقرقت عينيه بالدمع لإظهار ولاءه واخلاصه قائلاً فى حماس:

إن الله شهيدا مولاى على أننى سوف أكون دائما وحتى الرمق الأخير عندك مخلصا وخادما مطيعا لعظمتك يا مولاى.

نهض السلطان من مكانه وهو يقول فى ثقة وبصوت خافض.

سوف تظل معنا هنا يوما أخر فى هذا البلد تروى من خلاله على كابتنا ومسجل أخبارى «ميرزا يوسف» كل ما لديك من معلومات وأخبار وبيانات وإحصاءات وخطط تتعلق بالخاقان جنكيز خان وجيشه المغولى الكبير.

أجاب محمود غلوش شهبندر تجار أسيا والصين ونبرات الخضوع والخنوع تتجلى فى صوته الأجش قائلاً:

سوف أقوم بكل ما تأمرنى به سيدى السلطان العظيم وعلى غير ما هو معتاد علت نبرات السلطان وهو يقول فى عصبية ألقت بالرعب فى أوصال محمود غبوش

الذى كـان قد بلغ مـآمنه بعد حـديثـه مع سلطان خوارزم الذى عـاد يقول بوجـه ارتـسمت عليه خطوط الضيق والأسى الشديد.

إن جنكيـز خان يدعى فى رسـالته التى حـملتهـا لى أنه فتح بلاد الصـين وأنه استولى أيضا على عاصمـتها الشمالية. . فهلا أخبرتنى بالحقيـقة يا محمود وهل ما ورد فى رسالته صحيح أو أنه كذب وادعاء بقصد تخويفنا وإثارة أعصابنا؟

أجاب محمود غلوش وهو على انحنائه حـتى بدا مجهداً يشكو ألما يسـكن ظهره الذى بدا أشبه بقوس قزح:

لكى أكون صـادقا مع عظمة السـلطان فسوف أقـسم لك أن ما أورده فى ذلك الشأن صـحيح وصادق وقد حـدث أن استولى بالفعل على بلاد الصـين واتخذها عاصمة لملكه الواسع.

اشتد غضب البادى شاه محمد الخوارزمى قائلا لمحمود غلوش:

لكنك يا محمود تعرف كم هى ضخمـة وواسعة تلك المملكة الترامية التى أضع يدى عليها أم أنك تجهل حقيقة ضخامتها وبعد حدودها؟!

ثم هل لديك علم بما عليه جيوش الضخمة ومـدى قوتها الهائلة وعبقرية قوادى وبراعة ابـنى الأمير جـلال الدين خان وقـدرته الفذة فى إلحـاق الهزائم عـلى أعز جيوش الدنيا وأقواها؟!

وعادت نبرات السلطان محـمد تتصاعد حدتها مرة أخـرى حين عاودته ذاكرته صلافة جنكيز خان التى استشعرها فى صلب رسالته حيث عاد يقول غاضبا لمحمود غلوش:

كيف إذن يتـجاسر هذا الخـاقان الأبله الجلف راعى الابل والخـيل أن يصفنى أنا عـاهل المسلمين الأكـبر وسلطان دولـة خوارزم الضـخمـة بأننى فى معـزة أغلى

أولاده. فهل أنا فى مقام ابنه؟! ابنه هو؟! أرجوك يا غلوش خبرنى بربك عن مدى قوة هذا الخاقان وما الذى يتحلى به حتى يتملكه الغرور.

أدرك محمـود غلوش أن السلطان محمد لا أمـان له حيث سرعان مـا يتملكه الغضب وتحتويه الثورة إذا ما لاحت عـبارة جنكيز خان التى وردت فى الرسالة أمام عينيه ومن ثم تضرع إلى الله سراً أن ينجو بنفسه من هذا السلطان الغشوم الذى قد يأمر بقطع رأسه دون أن يهتز له رمش وأن يعود سالما لأهله وراح يبرهن على ولائه للسلطان قائلاً فى قنوع وإذلال «إن قوة جنكيز خان إذا قورنت بقوة مولانا السلطان هى أشبه بريشة فى مهب الريح العاتية».

وانفرجت أسارير الشاه مرة أخرى بعد أن ظل وجهـه عبوسا مكفهرا وقد ألتفت إلى محمود غلوش قائلاً:

هكذا!! صدقت القول يا محمود... إن جيوشى لا قبل لأحد بها.. فهى كما تعلم لا أول لهـا ولا أخر ولا يستطـيع كائن من كان أن يقـهرها أو يهـزمهـا وعاد السلطان إلى مكانه ليجلس عليه وهو يقول بصوت هادئ النبرات.

اذهب اذهب إلى ميرزا يوسف وأدل بـدلوك حول حياة جنكيز خـان وتحركات وأعداد جـيشه وبعـد يومين سوف يصلكم رسـالتى للرد على رسالة جنكيـز خان للإقرار على معاهدة التجارة الحرة بيننا وبينه.

وفى الصبـاح اتجه محمود غـلوش إلى ديوان ميرزا يوسف ليملى عليـه ما فى حوزته من أخبار ومعلومات حول حياة التتار وبالتحديد جنكيز خان وجيشه الكبير.

وراح محمود غلوش يعـترف بكل ما لديه من معلومات وأسـرار وأخبار تتعلق بحياة الخاقان وعدد زوجاتـه وأبنائه وأشقائه ومن الذى سوف يرث العرش من بعده وكيف استـطاع أن يجمع القـبائل حـتى أصبح ملكا على عـرش البلاد وروى فى

إسهاب كـيف استطاع تأسيس الجيش وبناءه على أحدث الـنظم وأكثرها تطورا وإلى أى مدى يمكن له غزو أى دولة تروق له؟!

كانت المعلومات التى أدلى بها محمود غلوش ثمينة وذلك حرصا على حياته من بطش السلطان الذى تعهـد أن يقضى نحبه إذا مـا تبين له كذبه وغدره وخـيانته وأنه سوف يمنحه مكافأة مجزية إذا ثبت له العكس.

لكن محمود غلوش ذاك التاجر الماهر كـان بدوره يخشى غضب الخاقان جنكيز خان ومـا يمكن أن يصنعه به إذا نما لـعلمه أمره مع سلطـان خوارزم ومن ثم راح محمـود يمسك بالعصـا من المنتصف حيث أدلى ببـعض المعلومات التى لا تشكل خطرا على مملكة التتار وعرش جنكيز خان.

من هنا نجح محمـود غلوش فى إرضاء السلطان وكسب ثقته والنجـاة بنفسه من غضبته والتأكيد على ولائه للخاقـان عظيم التتار وإنه مازال على عهده وإخلاصه له ولبلاده ولعرشه العظيم.

وبعد أن أنهى مـحمود غلوش مهـمته التى كانت مـحفوفة بالمخاطـر والصعاب والمكائد عـاد إلى بلاد الصيـن لمقابلة الخـاقان جنـكيز خـان وإبلاغه بما حـدث مع السلطان محـمد ومصير الاتفـاقية التجـارية التى دعا إليها جنكيـز خان مع سلطان خوارزم.

وعلى باب خيـمة جنكيـز خان وقف محـمود غلوش وبجواره رفـيقـيه اللذين اصطحباه فى رحلته إلى سلطان الدولة الخوارزمية لعرض ما لديهم من أخبار وصاح جنكيز خان بصوته الرهيب قائلا:

هيه... ماذا حدث معكم تكلموا؟!

كان التجار الثلاثة قد انحنوا وراح محمود غلوش يرفع وجهه إلى الأمام قليلا حتى تسنى له أن يتحدث إلى الخاقان استهل حديثه قائلاً:

إن السلطان محمد ملك الدولة الإسلامية الخوارزمية قد ابتهج للغاية بهدايا عظمتكم كما أنه كان سعيدا حين أبلغته بأمر الاتفاق التجارى معه وقد أبلغنا أنه يوافق على منح تجار المغول جميع الصلاحيات والامتيازات لكنه ثار وأبدى ضيقه وسخطه على ما ورد فى رسالة عظمتكم.

بدت الدهشة على ملامح الخاقان جنكيز خان وراح يستفسر عن سر غضب الشاه قائلاً بصوت غاضب:

ماذا؟! أخبرنى بسرعة ما الذى أغضب هذا الشاه وماذا كان فى رسالتى أثار حنقه؟ تكلم يا غلوش.

أجاب محمود غلوش قائلاً:

الواقع يا سيدى الخاقان أن ما أثار غضبه هو أنه قد جاء فى رسالة عظمتكم أنك..

فقاطعه جنكيز خان قائلاً:

هل غضب من أننى وصفته فى رسالتى بكلمة ولدى؟ هل هذا سر غضبه يا غلوش؟

أجاب غلوش فى صوت خافض وابتسامة باهتة:

نعم لقد صدق ما توقعته يا عظمة مولانا وهذا هو عهدنا بك دائما وقد بدا الشاه عند تلاوة تلك الكلمة كالأسد الجائع حتى ظننت أنى قد أصبحت فى مهب الريح على يد هذا السلطان.

وعاد جنكيز خان يقول:

وهل كنت تظن أنه سيقتلك يا جاهل؟ ألا تعرف أنه لا يقدر على ذلك لأنه على يقين من أننى لن أدخر وسعا فى القضاء علـى مملكته إذا ما كان قد أقدم على مثل هذا الأمر المشين؟!

نعم يا سيدى وقـد أفلحت فى أن أهدئ من روعه وأطفئ نيران ثورته الغـاضبة حتى يمر الأمر بسلام.

ليستبد الغضب بالخاقان جنكيز خان الذى قطب حاجبيه قائلاً:

ماذا؟ تقول أنك هدأت من روعه وأطفأت ثورة غضبه؟ كيف حدث ذلك؟

وراح محـمود غلوش يقص على حـضرة الخـاقان ما جـرى بينه وبين السلطان محمد وكيف أنه استطاع أن يخدعه ويوهمه بأنه قد أضحى ضمن رجاله المخلصين وأنه سيكون عينه وأذنه لدى حضرة الخاقان.

واسترسل مـحمود غلوش يروى كيف نجح فى مـهمته وكيف كـبح جماح هذا السلطان الأرعن الأحمق؟

لقد أفـضى محمـود غلوش بما فى حوزته وما اتـفقا عليـه مع سلطان خوارزم وأشار له بقطعة اللؤلؤ التى أهداها له السلطان محمد نظير إخلاصه له.

كان جنكيـز خان يشـعر بالابتهـاج والسرور خـلال سماعـه هذه الأنباء المثـيرة والخطيرة والتى لـم يكن يتنبأ بوقوعها على وجه الإطلاق.

واختتم جنكيز خان حديثه مع محمود غلوش ومن معه قائلا:

هل فى حوزتك شئ آخر تود الإدلاء به يا محمـود أنت ومن كان فى صحبتك إلى هذا السلطان المغرور؟

كلا يا سيدى الخـاقان هذا هو كل ما فى رأسى ولا أرانى قد أخفـيت شيئا عن جلالتكم ثم أنـا لا أجرؤ على أن أخفى على عظمـتكم أى شئ وهذا دليل ولائى وإخلاصى وانتمائى إلى مملكتكم العظيمة وعرشك المهيب يا سيدى الخاقان.

لاحت ابتـسامـة يندر وجودها على شـفتى الخـاقان الذى راح يقـول فى هدوء وصفاء ورضا:

لقد أرويت نفـسى يا محمـود فقد أحـسنت صنعا حيـن تمكنت من خداع هذا السلطان الأحمق وأفهـمته أن جيشى لا يستـطيع إلحاق الهزيمة بجيشـه وأنه جيش لابد انيه جـيشا آخـر فى هذه الدنيا.. هأ.. هأ.. هأ.. هأ.. هـأ.. لقد كنت بارعا يا محمود ومن ثم فأنا أدعوك ومن كانوا معك لتتناول العشاء معى هذه الليلة بعد أن تنالوا قسطا واسعا من الراحة والنوم هيا إلى خيمتك هيا يا محمود.

وراح جنكيز خان يستلقى على ظهره يتدبر أمـره ويستدعى أمام عينيه مادار بين رسله وبين السلطان الخوارزمى وقد قرر جنكيز خان ضرورة فتح دولة خوارزم من أجل قطع رقبة هذا السلطان واحـتلال إمبراطوريته وضمهـا إلى مملتكه وذلك تمهيدا لفتح الدولة العباسية التى يسيل لها لعاب الخاقان ويحلم بالسيطرة عليها.

كان جنكيز خان يرى أن بسط نفوذه على الدولة العباسية هو الذى سيتوجه ملكا على العالم وسيدا على البشرية دون أن ينازعه أحد فيها.

وقرر جنكيز خان إعداد حـملة ضخمة تتضمن جيشـه الجرار الرهيب استعداداً لخوض حرب طويلة وعنيفة مع شاه خوارزم بيـد أن جنكيز خان الذى عقد معاهدة للتجارة الحرة مع السلطان الخوارزمى بدأ يبـحث عن الأسباب المنطقية لفض الاتفاق وبدء الحرب المرتقبة.

وبعد مرور بضعة أسابيع ومن خلال مشاوراته مع مجلس حربه قرر جنكيز خان إيفاد محمود غلوش للسفر إلى السلطان الخوارزمى بحجة التجارة من خلال قافلة ضخمة يقودها محمود بوصفه أبرز وألمع وأغنى التجار.

كانت القافلة تحتوى على بعض مقتنيات جنكيز خان الخاصة به التى استلبها لنفسه من الحروب السابقة فضلا عن المنسوجات الحزيرية النادرة التى لا يستطيع شراءها سوى رجال السلطان وحاشيته.

ومضت القافلة التى تضمنت نحو أكثر من خمسمائة جمل على متن كل منهم أجود وأغلى البضائع ويقودهم نحو أربعمائة وخمسين جنديا من المغول ارتدوا ملابس التجار وكان من بينهم أقرب الحراس إلى قلب جنكيز خان ويدعى «أوسون» من ناحيته أبدى محمود غلوش امتعاضه من هذه الرحلة خوفا على حياته من بطش السلطان الذى يتربص به ومن ثم زعم غلوش ورفيقاه أنهم يتوجعون أثر سم دسه لهم السلطان محمد وهى الحيلة التى انطلت على جنكيز خان وحاشيته وعلى أثرها تخلف محمود غلوش عن القافلة.

المهم أن (أوسون) قائد القافلة قد لوح بتصريح مختوم بخاتم البادى شاه يسمح له بدخول أى من بلاد الأمبراطورية فضلا عن مزايا الإعفاء الضريبى وفق بنود المعاهدة المبرمة بين البلدين.

والواقع أن مدينة «أوترار» كانت معروفة بوصفها أكبر البلاد العامرة بالتجارة وكثرة الأسواق التى تستقبل قوافل الهند والصين وغيرها من البلاد العربية والأسيوية.

* * *

وبدخـول القافلة إلى أسـواق المدينة قام التـجار أو بالأحـرى جنود جنكيـز خان بعرض أرقى وأبهى وأغلى أنواع المنسوجات والسجـاجيد الفارهة التى يندر وجودها وقد أدرك رجال المدينة أن هذه البـضائع إنما هى غنائم استولى عليهـا جيش جنكيز خان عـقب احتلاله لبـلاد الصين وحين بلغ أمـر القافلة علم حـاكم أوترار «الخان أنالشيك خير» وهو ابن أخت السلطانة الوالدة «طور خان خاتون» راح يبعث بخطاب عاجل إلى السلطان جاء فيه بالنص «إن فى مديـنتنا قافلة جاءت لتوها من بلاد التتار وقد بدا لنا للوهلة الأولى أن هؤلاء التجار ليسـوا بتجار بل هم كما اتضح لنا جنود جنكيز خان وجـواسيسه حـيث إنهم يسألون الناس أسئلة أظنها لا تتـصل بحال من الأحوال بالتجارة.

وحين تسلمت الـسلطانة هذا الخطاب الخطير أرسلته إلـى ابنها السلطان محـمد الذى أصدر فـرمانا عاجـلا بمنع تلك القافلة من مغـادرة البلاد وسرعـان ما ألقى القبض على رجـال جنكيز خان الذين وجدوا أنفـسهم بين عشيـة وضحاها داخل سجن القلعـة لم يقتصـر الأمر عند حد الـزج بهم فى غياهب الـسجن بل أصدر السلطان أمرا بضرورة مصادرة البضائع وبيعـها لحسابه الشخصى إمعانا منه فى إثارة جنكيز خان ويؤكد المؤرخـون أن القتل كان مصير هؤلاء التجار أو الجـواسيس عقابا لجنكيز خان على ارتكابه مثل هذا الجرم المشين الذى يتعارض مع بنود المعاهدة التى أبرمت بين البلدين على أساس الاحترام والمعـاملة بالمثل وقدر السلطان أنه لم يبادر بالغدر والخيانة ومن ثم وجب عليه إنزال أقسى العقوبات برجال جنكيز خان حتى لا يعاود مـثل هذا الأمر مرة أخـرى والواقع أن الرواة قد اختلفـوا فى تفسيـر موقف الشاه وهل كان ينبغى علـيه اللجوء إلى اتخاذ مثل هذا القرار أم كان عليـه الاكتفاء بطردهم أو محاصرتهم لحين عودتهم إلى بلادهم؟

لقد علل هولاء الرواة موقف الشاه بقولهم إنه كان لا يستطيع أن يقف مكتوف الأيدى أمام هؤلاء الجواسيس الذين بعث بهم جنكيز خان لاستفزاز الشاه والتنصت على أسرار دولته وبعضهم راح يزعم أن هذا الأمر كان مقصودا ومتعمدا من جانب الشاه وذلك للرد على السلوكيات الهمجية التى اتصف بها التتار لاسيما فى الأقاليم الإسلامية التابعة الخاضعة للملكة الخوارزمية التى عانت طويلا من عمليات السلب والنهب على أيدى لصوص التتار.

فيما ادعى البعض الآخر من رواة التاريخ أن جنكيز خان أوفد تلك القافلة التى تضم المئات من جنوده الأشداء لاستفزاز المسلمين والصدام معهم لكى يتخذ من ذلك ذريعة لشن حرب لا تبقى ولا تذر.

بينما أكد غيرهم أن الشاه محمد إنما أراد من وراء تلك الحادثة استفراز جنكيز خان لكى يتسنى له دخول منطقة تركستان والتى كانت فى حوزة مملكة جنكيز خان.

وعلى الضفة الأخرى من هذا الرأى فند آخرون تلك الأكذوبة التى روجتها أقلام ماكرة خبيثة كانت تعمل فى صمت من أجل تلطيخ سمعة البادى شاه وتحميله مسؤلية الحرب بمفرده في ساحة الخاقان السفاح الطاغية جنكيز خان وكأنه حمامة سلام!!

والثابت أن الشاه محمد لم يكن طامعا فى أراضى التتار بل كان مسالما راضيا عما بين يديه رافضا الزج ببلاده فى حروب طاحنة بعضهم زعم أيضا أن الشاه محمد الخوارزمى كان قد طمع فى قافلة التجار وقد غفل هؤلاء عن الضياع والثروات والكنوز التى كان يملكها الرجل والأموال التى كانت فى حوزته ولو كان طامعا لبادر بشرائه من أمواله الخاصة بدلا من استلابها ونهبها على النحو الذى ورد فى كتابات بعض الذين لا هم لهم سوى تشويه الإسلام والمسلمين على نحو أو

آخر على أية حال بلـغ أمر هؤلاء التجار المزعومـين ومصيرهم إلى الخـاقان جنكيز خان الـذى جن جنونه واشتـعلت النار فى صدره وغـضب وسخط وراح يـضرب الرجل الوحيد الذى أرسله الشاه إلى جنكيز خان لإبلاغه بالواقعة.

* * *

بعد أن هدأت أعصاب جنكيز خان قرر إرسال وفد من رجاله إلى مدينة بخارى لمقابلة السلطان للتباحث بشأن مصير التجار التتار والوقوف على حقيقة الموقف بعيداً عن المزايدات أو هكذا علل جنكيز خان موقفه.

وكان (ابن كـفرى) أحـد أبناء أميـر كان يعـمل فى خدمـة السلطان طقش والد السلطان محمد الخوارزمى ومعه رجلان آخران من كبار التتار.

ووصل الوفد إلى مقر السلطان مـحمد الذى كان حائرا فى كيفـية مقابلاتهم.. هل يبدى ترحابا بهم أم يسئ مـعاملتهم قيل إن قادة الكبشـاق أوعزوا إليه بأن يسئ وفادتهم وألا يعيرهم اهتماماً استخـفافا بسيدهم جنكيز خان ولكن رئيس الوفد ابن كفرى كان قـد دخل إلى القاعة الكبرى منتصب القامـة مرفوع الرأسى حيث أبى أن يركع أو يسجد كالذين يترددون على القصر يركعون بين يدى السلطان.

كان السلطان يتوجس خيفة من تلك المقابلة التى سيتحدد على أثرها مصير الأمم والشعوب فى الأيام القادمـة أما ابن كفرى فقد بدا وكأنه جـاء للقتال والصدام ولم يكن مستفسرا أو باحثا عن الحقيقة التى ينبغى معرفتها والتحقق منها.

وقف ابن كفرى أمام السـلطان محمد فى ثبات وثقة وهو يقـول نقلا عن سيده الخاقان جنكيز خان:

لقد أرسلنا مولانا الخاقان العظيم وسيـد الدنيا جنكيز خان لكى نذكرك أن تجارنا الذين جاءوا إلى مدينة أوترار قـادمين من داخل إمبراطوريتنا كانوا يحـملون معهم

ترخيص عليه خاتمك، يسمح لهم بالمرور وحرية الحركة والتنقل والتجارة مع إعفائهم من دفع الضرائب وأظن أن هذه الرخصة أمر صادر منكم إلى جميع رعاياك بإحسان معاملة هؤلاء الذين يحملون خاتمك وتسهيل مهام عملهم مع الحفاظ على أموالهم وأرواحهم.. لكنك غدرت بهؤلاء التجار غدرا لا يليق فقتلتهم وصودرت بأوامر منك بضائعهم وأخذت أموالهم وإذا كان نقض العهود يعد عملا قبيحا فإنه بالطبع يعد أكثر قبحا إذا كان صادرا من عاهل المسلمين!!

نهض السلطان محمد من مقعده وقد غلت الدماء فى عروقه وجحظت عيناه وهو يقول: اسكت.. توقف عن الاسترسال فى الكلام أيها السافل الحقير.. أنت قليل الحياء فاقد الأدب لا تعرف كيف تخاطب عاهل المسلمين..

ومضى السلطان يقول: كيف سمحت لنفسك أيها الأحمق أن تخاطبنى بتلك اللهجة وبهذا الأسلوب.. كيف تجاسرت على أن تحملنى مسؤلية عمل قام به أحد عمالى؟!

دب الخوف فى أوصال ابن كفرى الذى بدا يتحدث بلهجة أقل حدة من تلك التى انتهجها فى بادئ الأمر حيث راح يقول بنبرات هادئة خافضة رقيقة.

أيها السلطان العظيم.. مادام نائبكم أو عاملكم فى مدينة أوترار هو الذى ارتكب هذا الجرم الشنيع فقد تجاوز حدوده وانتهك سلطانكم فلماذا لا تسلمنا هذا المارق العاص لإرادتكم والخارج على طاعتكم ذاك المدعو «الخان أنا لشيك خير) لكى يحاكمه مولانا العظيم بما يتناسب مع الجريمة النكراء التى ارتكبها بدم بارد فى حق تجار بلادنا المسلمين.

فأجاب السلطان وهو يتميز غيظا من وقاحة ابن كفرى قائلا:

وماذا لو لم ألبِّ لكم هذه الرغبة؟! ماذا أنتم صانعون؟

كان السؤال مباغتا حيث ظل ابن كـفرى صامتا برهة من الزمن حتى يتدبر أمره ثم سرعان ما عاد يقول بلهجة لا تخلو من الصلافة والكبر والخيلاء:

إذن عليك أن تتأهب للحرب مع بلادنا وليكن معلومـا لديكم أنها ستكون حربا مدمرة لا تبقى ولا تذر وربما لا تعلم أيها الشاه أن رماح التتار إذا انطلقت لا تخطئ أبداً فى تصويبها!!!

لاذ الشاه بالصمت إزاء الرد الذى كاد يصيبه بالذهول حيث كان الشاه على يقين أن قوة جيش جنكيز خان التى بدت أمامه فى المعركـة الفائتة قوة غاشمة رغم حسن تنظيمها ودقة ترتيبها وجسارتها وشجاعتها.

وعاد السلطان يقول لرسول التتار لإنهاء الجدل الدائر بينهما ولإسدال الستار على حوار ينبغى إنهاؤه على نحو أو آخر:

اعلم أيها الأحمق أننى لن أسلمكم رجلا من رجال مملكتى وأننى لو علمت أنه قد أجرم فى حق رجالكم فسوف أحاكمه وفق تعاليم الشريعة الإسلامية.

لكننا يا مولانا السلطان نريد أن نحاكمه حـتى نقتص لهؤلاء الضحايا الذين قتلهم غيلة وغدراً.

هذا الرجل على وجـه الخصـوص من أخلص رجالى ومن ثم لن أسلمـه لكم مهما كان الأمر هل بلغتك الرسالة؟!

صاح أحد الـكبشاق قائلا الموت لهـذا الرسول الأحمق فارتعـدت فرائص ابن كفرى قائلا بصوت هادئ النبرات:

ما أنا أيهـا السادة إلا رسول وما على الرسـول إلا البلاغ المبين. فـهل من شيم المسلمين المؤمنين قتل الرسل؟!

صاح أحد الكبشاق ثائراً:

لكنك أيها الأحـمق لست رسولا بل أنت حـذاء لهذا الكافر جنكيـز خان وأنت مسلم مؤمن. فكيف بربك ترضى على أن تكون رسولاً لهذا الكافر؟

ثم سرعـان ما تكالب عليه رجـال عشيـرة الكبشاق بـسيوفهـم وخناجرهم التى غرسوهـا فى جسده كأن كل منهم أراد أن يثأر لعزيز لديه سقط شهـيدا على يد هؤلاء الهمج.

* * *

الفصل الخامس
العاصفة

بعـد أن سقط ابن كـفرى مضـرجا فى دمـائه على أيدى رجـال الكبشـاق عاد الرسولان اللذان كانا معه إلى بلادهما لنقل خبر ابن كفرى.

وعلى باب خـيمـة الخاقـان وبين حراسـه الذين احتـشدوا حـول الرجلين راح أحدهم يروى لملك البلاد ما وقع لهم على أيدى السلطان محمد ورجال حاشيته.

وراح جنكيز خان يتساءل فى لهفة..

أين ابن كـفرى؟ أين هو؟ لماذا تلكأ فى المجـئ إلى هنا؟ هل أصابتـه وعكة من عناء السفـر؟ وكيف سمح لنفـسه بالنوم قبل أن يـمر على خيـمتى؟! اللعنة إن ابن كفرى يجب معاقبته.

لم يترك جنكيـز خان لنفسه فـرصة الاستمـاع لهؤلاء حيث كان ابن كـفرى هو موضع ثقته ونديمه الذى يروق له حديثه وشرحه.

ولكن لم يدم الأمر طويلا حيث إن أحد الرجلين بادر قائلا.. تسألنى يا سيدى الملك عن ابن كفرى؟

دامت لنا رأسك يا عظيم التتار.

ماذا حدث تكلم يا أحمق؟

لقد أراد أن ينقل رسالتـك بحروفها إلى السلطان فانقض علـيه رجاله على قلب رجل واحد فتفرق دمه الذى سال على خناجرهم جميعا.

تقول إنهم قتلوا ابن كفرى؟ قتلوا رسولى؟ وهرع جنكيز خان من خيمته فاقدا وعيه وكأنه خلع عنه رداء هيبته ووقاره وراح يضرب الأرض بيديه وفى كفيه حفنة من التراب عفر بها وجهه وهو يصرخ بين قومه قتلوا رسولى.. قتلوا رسولى!! والناس قد تجمعوا من حوله فى ذهول من أمر الخاقان العظيم الذى بدا لهم كمن أصابه مس من الجنون.

كان جنكيز خان قد بللت لحيته الحمراء بدموع تفيض منها الأنهار..

وانطلق جنكيز خان إلى جواده الذى قفز عليه كأنه فى شرخ الشباب رغم أنه كان قد بلغ الستين من عمره وقد تزوج خمسمائة امرأة أنجبت له آلاف الأبناء.

وعلى ظهر جواده توجه السفاح إلى الجبل الأزرق وتبعه قومه وظل يبكى كالنساء ويعوى كالذئاب ويذأر كالليث وراح يصيح صارخاً أيتها السماء الأبدية إن عدلك يتطلب أن يهلك الطاغية الشرير.. وقد استحق هذا الشاه عقابك واستحقه رجال دولته ورعاياه.

لقد أرادها حربا.. إذن هى الحرب.

وصاح القوم من وراء صيحتهم الشهيرة هووووووه وبدأت العاصفة المغولية العاتية حيث قاد جنكيز خان حملته الضخمة لغزو إمبراطورية خوارزم المترامية الأطراف ومن جانبه تأهب السلطان محمد بن خوارزم شاه ووقف على رأس جيشه الكبير والتقى الجيشان فى منطقة نهر سيحون واستمرت المعركة أربعة أيام وقد سقط خلال تلك الأيام عدد غفير من الفريقين حتى قيل إن الذين استشهدوا فى جيش المسلمين جاوز العشرين ألفا وسقط من التتار نحو سبعين ألفا.

ورغم أن المعركة كانت فى بادئ الأمر لصالح جيش السلطان إلا أن الأمور قد تحولت بصورة مفاجئة أرغمت السلطان محمد على إصدار قرار يقضى بسحب قواته بعد أن اكتشف ضخامة عدد المغول الذى يفوق أعداد جيشه.

كان السلطان محمد يهدف من وراء هذا الانسحاب الحفاظ على جيشه بعد أن سقط منه الآلاف فضلا عن العودة إلى عاصمته لتحصينها وحمايتها حتى لا تقع بين أيدى التتار الذين يقودون حملة شرسة تهدف إلى تفتيت مملكته والاستيلاء على أقاليمه المترامية.

لقد كان هذا العام ٦١٦ هجرية كئيبا على الدولة الخوارزمية التى أصبحت فى مهب الريح بعد أن أتت عاصفة جنكيز خان بكل ما أوتيت من قوة ومهابة.

ويؤكد الرواة أن محمد بن خوارزم قد عض بنان الندم على ما اقترفه فى حق التجار الذين كانوا سببا لهذا البلاء علاوة على شعوره بالوحدة والانعزالية بعد أن ناصب كافة البلدان الإسلامية العداء الشديد حيث كان قد قام بذبح وقتل العديد من حكام البلدان المجاورة للاستيلاء على دولهم وكان منافساً عنيداً للخلافة العباسية ومن ثم كانت الفرقة بينه وبينهم من أهم أسباب اندثار قوته وانكماش جيشه الذى كان يتفاخر ويزهو به أمام العالم أجمع.

أضف إلى ذلك أن الشاه محمد كان قد أبدى قدراً هائلاً من الاهتمام بأسرته وحاشيته للحفاظ على أرواحهم دون أن يعبأ بأرواح رعاياه من أطفال وشيوخ ونساء المسلمين وربما كان ذلك من أبرز الأسباب التى أدت إلى النكوص على عقبيه وانفراط عقد دولته الواسعة على يد ذى اللحية الحمراء.

* * *

سقوط مدينة بخارى
٦١٦ هجرية

أدرك جنكيز خان أن قوات السلطان محمد قد أصابها الرعب ومن ثم حانت الفرصة أمامه لتحقيق أطماعه التى كثيرا ما تطلع إليها لعله من خلالها يستولى على تلك الممالك وبعدها يبسط نفوذه على الدولة العباسية.

وها هى مدينة بخارى تلك التى أنجبت أعظم أئمة الإسلام الذى قام بتجميع أحاديث الرسول ﷺ بعد عناء وجهد جهيد استطاع من خلاله تنقية السنة النبوية مما شابها وحاق بها على يد غلاة اليهود وأشباههم الذين أرادوا للإسلام سوءاً ويكيدون له كيداً.

المهم فى نفس العام المشئوم ٦١٦ هجرية الذى شهد الهزيمة الأولى كان شاهدا على سقوط مدينة بخارى على يد التتار والحاصل أن المدينة كانت تشكو حيرتها وأمرها إلى من بيده الأمر بيد أن ولى الأمر كان غارقا فى تحصين عاصمته ومن ثم راح أهل بخارى يتبادلون معا الأحاديث لعلهم يصلون إلى حل يمكنهم من مجابهة تلك العاصفة.

كان الفريق الأول يرى أنه ينبغى الدفاع عن مدينتهم وليكن ما يكون فالشهادة في سبيل الله والدفاع عن الإسلام أسمى وأعظم فى الخنوع والخضوع لمن لا عهد له ولا أمان.

فيما رأى الفريق الأخر أهمية التلويح براية الاستسلام حفاظا على مدينتهم من الخراب والتدمير وحرصا على أرواح أطفالهم وشيوخهم وأعراض نسائهم وكانت الغلبة لهذا الفريق الذى كان يتميز بالكثرة والغلبة.

وأمام جيوش التتار كانت بخارى مفتوحة أبوابها على مصراعيها ودخل جنكيز خان إلى المدينة الواسعة وصك عهد الأمان عند دخوله ولكن منذ متى كان لهؤلاء عهد أو ذمة؟!

لقد أراد جنكيز خان من وراء تلك الخديعة التى اعتاد على التلويح بها فى كل معاركه أن يتعقب فلول المجاهدين الذين أبوا الاستسلام وقاتلوا فى سبيل الله لنصرة دينه ووطنهم.

وعلى الفور قرر جنكيز خان فرض حصار شديد على أسوار القلعة التى تحصن بها هؤلاء الأبطال البواسل أما الذى أثار الدهشة والاستغراب هو الخضوع المهين لهؤلاء الذين استسلموا حيث التفوا جميعا على قلب رجل واحد حول جيش جنكيز خان لدعمه ومؤازرته ضد جيش جنكيز خان لمحاربة المجاهدين المتحصنين داخل القلعة.

لقد هرع هؤلاء فى حفر الخنادق حول القلعة حتى يتمكن جنود جنكيز خان من اختراقها واقتحامها دون تردد وظل الحصار طوال الأيام العشرة الأولى من اجتياح قوات جنكيز خان للمدينة حتى تمكن فى اليوم الحادى عشر من اقتحام القلعة وإبادة جميع المجاهدين الذين تطايرت رؤوسهم من أعلى القلعة بتعتها جثثهم التى ألقيت فى الخنادق كعبرة لمن تسول له نفسه الخروج على طاعة جنكيز خان.

* * *

بعد أن استعاد جنكيز خان القلعة وخلاصه من أبطال بخارى راح يلتفت إلى هؤلاء الذين ارتعدت فرائصهم وتملك منهم الخوف وظنوا خيرا بمن اعتمر قلبه بالشر والآثام.

وبأمر صادر من جنكيز خان اجتمع جميع أهالى المدينة للوقوف على ما يريده الملك الجديد للبلاد.

كان جنكيــز خان مبتــهجاً بالنصــر الساحق الذى حققــه وأحرزه دون عناء وراح يجلس على عرشــه والمنادى ينادى بأعلى صوته: إن عظيم التتــار يدعوكم جميـعا استخراج ما لديكم من كنوز وأموال وانتشر الأهالى وعادوا إلى بيوتهم ليحملون ما لديهم من ثروات وكنوز وأموال وذهب رضوخا لفرمان حضرة السلطان الجديد.

وحين عاد القــوم مرة أخرى للوقوف بين يدى حــضرة السلطان وتسليم جنوده ثرواتهم أمر جنكيز خان جــنوده بحرية الاعتداء الصارخ على نساء بخارى وفـتياتها وقتل رجالها وذبح شبابها وهكذا أطلق العنــان لرجاله خيانة للعهد الذى قطعه على نفسه للمساكين الذين أحسنوا الظن به كما تحسن الغنم الظن بالذئاب والثعالب.

وهكذا سقطت بخارى وتدفقت ســيول الدم وسالت أمطار الدمع وتناثرت الجثث واغتصــبت النساء وانتهك التتار أعراض الـفتيات الصغيــرات أمام آبائهن وأخواتهن وعم الخراب المدينة وأشــعل الجند الحرائق فى كل ديار المجاهدين وأضــربوا النيران فى كل مكان حتى كـادت أعمدة الدخان تشق عنان الســماء من هولها وحجـمها وكثافتها.

* * *

سقوط مدينة سمرقند
٦١٧ هجرية

اشتهـرت مدينة سمرقند دون غيـرها من أقاليم الدولة الخوارزميـة بكثرة القلاع الحصينة والأبراج المرتفعة والأسوار العالية وثـراء أهلها الشديد وقدرتها على الاكتفاء الذاتى لغناها الشديد.

لقد كـان السلطان محمـد بن خوارزم يدرك مدى أهمـية هذه المدينة المفـصلية وذات المكانة الاستراتيجية والتاريخية والجـغرافية والعسكرية والاقتصادية ومن ثم أمر بحشد نحو خـمسين ألفا من جنوده لتحصيـنها وحمايتها والحفـاظ عليها من أبالسة التتار المخربين.

وكما كـان متوقعـا انطلقت جيوش جنكيز خـان إلى مدينة سمرقند وقـد طوقها بحصار حديدى مضروب من جميع منافذ المدينة.

كان أهالى سمرقند بدورهم قد ظنوا أن الجيش الذى حشده السلطان قادرا على صد ورد هجمات المغول بيـد أن الرعب قد استولى على قلوب الجنود الذين كانوا قـد نما لعلمهم مـا حدث على يد جنـكيز لأهالى مـدينة بخارى من ذبح وسـفك للدماء واغتصاب للنساء.

كان واجبا على هؤلاء الذين روعتهم تلك الحكايات أن يتسلحوا ويستبسلوا لصد هذا الغـازى العنيف من أجل صيـانة أعـراض نسائهـم وحمـاية أرواح أطفـالهم وشيوخهم ونـسائهم ومدينتهم وقبل كل ذلك إسلامـهم الذى بات مهددا على يد عبدة الأوثان والنيران ومن لا عهد لهم ولا أمانة.

لقــد كان الجــيش الخوارزمى الرابط فى ســمرقند كـافيـا إذا أضيف إليـه أهالى سمرقند من الذين يرغبون فى الجهاد والاستبسـال فى سبيل الله ونصرة الإسلام بيد أن الخوف كـان هو العــدو الأول والأوحد لولاقه لكان للتـاريخ كلمة أخـرى ورأى أخر.

وإذا كان الخــوف هو عدو المسلمين الأول الذى سحـقهم فقد كـان هو السلاح الوحيد فى تقـديرى الذى استطاع جنكيز حان بواسطته سـحق وإبادة الجيوش التى تخضع للسلطان محمد بن خوارزم سامـحة الله وغفر الله سوءته وخطيئته فى حق الإسلام وبلاده.

لقد أراد بعض أهالى سمرقند اقناع رجال الجيش فى الخروج من مخابئهم لملاقاة جيش العدو دون جـدوى حيث كان قادة الجيش قـد قرروا فيما بينهم الاسـتسلام لجنكيز خان والانضمام لجيشه بدلا من سفك دمائهم وسقوطهم صرعى على أيادى التتار الهمج.

هكذا غابت الشهادة إحدى الحسنيـين كما تلاشى الجهاد من قلب جنود الجيش الإسلامى الذين كان همهم الأوحد هو حمـاية السلطان وحاشيته وأسرته ولم يكن من بينهم من يعرف أن للجـهاد معانى أخرى على عكس المفـاهيم التى تربى عليها حضـرة سلطان الدولة الذى كـان همه وشـاغله الجهـاد فى سبـيل عرشه الـسامى الفخيم.

لو كان فى ذلك الزمان رجل رشـيد صرخ من على منبره أن الجهـاد فى سبيل الله هو أحد الحسنيين وكذلك الشهادة لتـسابق على الفوز بها المسلمون الأوائل وما كان قـد بلغ بالمسلمين هذا الحال وما سـقطوا فى هذا المستنقع وما كـان قد سكن الخوف صدورهم وما كان قد استقر الرعب فى نفوسهم!

كيف كان سيظهر هذا الرجل وقد كان شيخ الجامع الكبير ومستشار السلطان شيخ جرجان خائنا وعميلا وجاسوسا يعمل لحساب جيش التتار ويحمل فى صدره أسطوانته الذهبية بدلا من قلبه الذى كان ينبغى أن يكون عامرا بالإيمان نابضا بالجهاد فى سبيل الله؟!

على أية حال قرر أهالى سمرقند الخروج لمواجهة جيش التتار وقد بلغ عدد الأهالى الذين حملوا السلاح نحو سبعين ألفا من الرجال المجاهدين بعد أن تملكهم اليأس من جنود جيش السلطان المتخاذلين.

خرج المجاهدون حاملين سيوفهم دون أية خطة عسكرية أو عتاد تتناسب مع عدو غشوم همجى لا يعرف الرحمة والشفقة ولا يحترم أصول القتال ولا يراعى قواعدها الإنسانية.

اعتمد أهالى سمرقند على كثرة أعدادهم لعلها تقذف الرعب فى قلوب جيش التتار الذى روعته ضخامة أعداد أهالى سمرقند.

وأمام هذا العدد اضطر التتار إلى التظاهر بالتراجع والانسحاب بهدف استدراج الأهالى خارج المدينة حتى يتمكن التتار من اصطيادهم.

ومع التراجع التتارى إلى الوراء ظن أهالى سمرقند أن النصر قد كتب لهم وواصلوا الزحف نحو جيش التتار الذى ابتعد عن المدينة ثم سرعان ما انقض عليهم بعد أن فرض عليهم محاصرته حصارا شديدا خارج المدينة من هنا قام جيش التتار بأعمال ذبح رهيبة لا نظير لها راح ضحيتها أهالى سمرقند الذين أبادهم جنكيز خان ولم ينجُ منهم فردا واحد حتى أن رواة التاريخ كانوا يخجلون من ذكر تلك الأعداد الغفيرة التى راحت ضحية خوف الجيش وإهمال السلطان.

تخيل سبعين ألفا فى يوم واحد لمجرد أن السلطان غارق حتى أذنيه لتحصين عاصمة ملكه وأن رجال الجيش قد خشى قوادهم من خوض غمار معركة مع التتار بأهداب الحياة ظنا منهم أن جنكيز خان يمكن الارتكاز عليه والعمل تحت لوائه وأسفاه على جيش ظن رجاله أن العيش جبنا فى سبيل الحياة أسمى من الموت فى سبيل الله وقد غفلوا عن أن الموت مرة واحدة أفضل للمرء من أن يموت فى اليوم مائة مرة مذلة وخنوعا كانت مفاجأة مروعة حين تقدم قادة الجيش الإسلامى بطلب استسلام لقادة جيش التتار إيثارا للسلامة وطمعا فى النجاة.

من جانبهم لم يتردد جيش التتار فى صك عهد بالأمانة لهم وكما كان متوقعا طلب جنكيز خان منهم استخراج ما فى المدينة من كنوز ومجوهرات وأموال وأسلحتهم وخيولهم ودوابهم.

رضخ الجنود الجبناء لمطالب جنكيز خان وقاموا عن بكرة أبيهم بتسليم ما فى داخل القلاع والحصون والأبراج والديار والمخابئ من أسلحة ومجوهرات وكنوز وخيرات وعقب إتمام هذه العملية المهينة التى زداها الجيش الخوارزمى أصدر جنكيز خان أمره بالبدء فى أعمال القتل والذبح والسلب والنهب واغتصاب النساء وذبح الشيوخ وقتل الأطفال وتخريب الجامع الكبير وتدمير البنايات حتى تحولت المدينة على يد هؤلاء إلى كومة من التراب وقطعة من الجحيم.

* * *

نهاية السلطان المهينة

بعد أن دانت مدينة سمرقند وطابت لجنكيز خان بوصفها أجمل وأكبر وأبرز بلاد الدولة الخوارزمية راح يتباحث مع مجلس حربه عن الموقف من السلطان محمد بن خوارزم.

كان جنكيز خان الذى أباد المدن الإسلامية قد استخف بالسلطان الذى تهاوى صرحه واستصغر من شأنه بعد أن كان يظن أنه يملك جيوشا جرارة لا تقهر من هنا قرر جنكيز خان تصفية السلطان محمد وإنهاء عهده الذى استمر نحو إحدى وعشرين عاما ظل خلالها عاهلا للمسلمين وقد حان الوقت للقضاء على عرشه وإنهاء حكمه وإبادة أسرته حتى لا تقوم لها قائمة مرة أخرى.

كان جنكيز خان يشعر بداخله أن الأمور لن تطيب له داخل الدولة الخوارزمية إلا بعد زوال عرش السلطان وإلا سيظل شوكة مغروسة فى لحمه تؤرق نومه وتوخز قلبه ومن ثم لم يعد ممكنا أن يظل هذا السلطان على قيد الحياة.

واتفق جنكيز خان مع مجلس حربه على اصطياد السلطان محمد وراح يصدر أوامره بتعقبه أينما ذهب وبلغ الاستخفاف بالسلطان محمد أن قرر جنكيز خان إرسال كتيبة من جنوده قوامها عشرون ألف جندى فقط من الجيش التارى وهو الذى يعلم أن السلطان يحكم دولة مترامية الأطراف تثير الرعب لمن يجهلها.

لكن يبدو وأن جنكيز خان ذاك العبقرى الجبار كان أبعد نظرا من غيره حيث راح بعض قادته يحذرونه من ضآلة وقلة العدد الذى سيطارد السلطان ويقضى عليه كان جنكيز خان ببصيرته الثاقبة وذكائه الحاد قد أدرك أن السلطان محمد قد أضحى بلا حول ولا طول ومن ثم انفرط عقد دولته دون جهد بعد أن شاع خبر قواته فى شتى بلاد المسلمين الذين بلغهم خزى سلطانهم وجبنه وخوفه من مواجهة جنود التتار.

على أية حال انطلق التتار الذين تحـملوا مسؤلية تتبع وملاحقـة السلطان محمد إلى مدينة أورجندة التى يحـتمى بها وقد كـانت تلك المدينة المجبية إلى نفـسه حيث اتخذها عاصـمة لمملكته الواسعـة دون غيرها نظرا لموقعـها الجغرافى الاسـتراتيجى والرائع لاسيمـا وأنها تقع على الشاطئ الغربى من نسهر جيحون وقـد قصده جنود التتار من الناحـية الشرقية وحـين أدرك جنود التتار أن نهر جيـحون هو الذى يعوق تقدمـهم وزحفهم نحـو الهدف المنشود قـاموا على الفور بإعـداد مراكب خشبـيه شيدوها على عجل لنقل أسلحتهم وعبـور خيولهم وجمالهم ومنهم من راح يسبح وآخرون تعلقوا فى أذيال خيلهـم التى كانت تجيد السباحة وكـأنهم عفاريت خلقهم الله من نار حيث إن مـا يصنعونه يفوق طاقة البـشر ولو كان الجيش الخـوارزمى قد امتثل لأمر الله فى الجهاد والموت فى سبيله كما يمتثل هؤلاء التتار للموت فى سبيل إرضاء الخاقان السفاح لتغير وجه الحياة وأصبح للإسلام والمسلمين شأن أخر.

نهايته.. سبح عفاريت التتار على أحواض خشـبية كبيرة كانوا قد ألبسوها جلود البقر كى لا يتسرب إليها الماء حتى يتمكنوا من نقل أسلحتهم بواسطتها.

وهكذا نجح هؤلاء الأبالسـة فى العبـور إلى الضـفة الأخـرى بكامل أسلحتـهم وعتادهم وجيـادهم ومؤنهم وقد باغتوا الجيش السلطانى الذى كان غـارقا فى سباته العميق كأنهم صم بكم عمى لا يبصرون.

لقد كانت المفاجأة مروعة للجيش السلطانى الذى وجد نفسه وجها لوجه مع من كانت قلوبهم من حديد وأعصابهم من فولاذ وسيوفهم من نار.

وحين بلغ نبـأ وصولهم إلى حضرة السلطان غـفر الله له ما تقدم من ذنـبه وما تأخر فى حق بلاد الإسلام والمسلمين قرر علـى الفور البحث عن طريق يأمن فيه شرور التتار ويلوذ به هو وأسرته لعله ينجو من هؤلاء الذين أقبلوا لكسر شوكته.

كان أهالى مدينة أورجندة قـد ظنوا أن هيبة سلطانهم وكبرياءه وعظمـته وتاريخه المجيد وملكه الواسع سوف يتصدى لهؤلاء الذين تجاسـروا واقتحموا مدينته بيد أن السـلطان سامحه الله كان قد استولى عليه الرعب وتملك منه الخوف وبدا للمسلمين كاليتيم يبحث عن طرق نجاة له ولأسرته.

وقبل أن السلطان لم يكن يبحث عن النجاة لأحد غيره حيث لم يكن يعبأ بأحد سواه فقط حتى كاد الذهول يعقد ألسنة الناس من فرط خوفه الذى انتقل بدوره إلى أهالى المدينة وكيف لا يتملكهم ذاك الخوف وقد استحوذ على من كان يملك الدنيا بين يديه وها هو قد فر من مدينته فرار السليم من الأجرب..

* * *

المهم أن السلطان أطلق ساقه للـريح مع بعض من أفراد حاشيته وأسـرته قاصدا مدينة نيسابور[1] فى حين لاذ جنود سلطته بالهرب حيث الأمان المفقود.

وحين علم قـادة التتار الذين يقـتفون أثر السلطان أن الرجل قـد اتجه هاربا إلى مدينة نيسابور أطلقوا خيولهم وراءه لتعقبه لعلهم يستطيعون الوصول إليه والإيقاع به أسيرا لإهدائه حـيا لسيد العالم جنكيز خـان الذى كان ينتظر خبر وقوعه فـى قبضة رجاله بين الحين والآخر والذى طاب له العيش فى مدينة سمرقند.

كان السلطان مـحمد لا يدرى أين المفـر وأين المستقر وقـد راح الموت يتراقص أمامه لقد عاب عليه المؤرخون الذين تميزوا غيظا من بعد أن اختار الموت هربا وجبنا وكان بمقدوره أن يموت شهيداً وبطلاً تخلـد ذكراه فى كتب التاريخ وتتصدر صوره متـاحف العظماء بدلا من تكهـين سيرته فى خـانة الساقطين من ذاكـرة التاريخ أو الذين باعوا الدين بالدنيا وباعوا أوطانهم بأبخس الأثمان فى سـوق النخاسة والعبيد لمن كان يملك المال والسلاح.

(١) مدينة إيرانية حاليا.

وحين كان يمر موكب السلطان الهـارب علي ديار المسلمين كان الرعب يستولى على الأهالى من هول التتار الذين أرغموا حامى ديار الإسلام على الهرب والفرار وهو الأمر الذى أدى إلى تدشـين قوة التتار حـتى أنها قامت حقـيقتهـا مكان لهربه وفراره المهين دعاية هائلة لجيش التتار.

وحط جـيش التتـار رحاله فى مـدينة نيسـابور التى لجأ إليـها السلـطان محـمد الخوارزمى الذى قـرر مواصلة الهرب إلى حيـث لا يدرى حين بلغته أنبـاء وصول التتار إلى المدينة التى ظن أنها بمأمن عن هؤلاء الطغاة السفاحين.

وعلى الفور اتجه المسكين إلى مدينة (مازندران) إحـدى المدن الإيرانية وقد تعقبه عفاريت التتار الذين بلغهم نبأ هروبه.

وحين استقـر به المقام فى مدينة (مازندران) أخبره بعض خلصـائه أن التتار على أبواب المدينة فأطلق ساقه للريح إلى مدينة تسمى (الرى) وقد اختار لنفسه مكانا آمنا به لم يهنأ بالبقاء بداخله ساعة واحدة حيث علم من أنصاره أن الأبالسة على وشك الوصول إليـه فما كان منه إلا أن انطلق كـالسـهم إلى مدينة أخرى تسـمى همدات وسرعـان ما أراد خداع التـتار وتضليلهم ليعـود إلى مدينة (مازندران) مـرة أخرى وبسب أن أمره قد افتـضح بين الناس فأدركه التتار وتعقـبوه أينما ذهب فى مطاردة مهينة أثارت حفيظة المسلمين وأدمت قلوبهم على مصير رجل كان العالم يركع بين يديه فأصبح الأن يجثو على ركبتيه طالبا الحياة.

بعـد أن لاذ بالفرار إلى مـازندران وعلم التتـار بأمره قـرر المسكين الفـرار مرة أخرى إلى أقليم طبرستان الإيرانى على ساحل بحر قزوين.

فى هذا الساحل وقـعت عين الرجل الخائف على إحـدى السفن فأسرع إليـها وقفز كالبهلوان لعلها تنقله إلى حيث يعجز التتار عن اصطياده والإمساك به.

وبدأت سفينة النجاة تمخر به عباب البحر وقد رأى بعينه جيش التتار يقف على حافة شاطئ البحر يتحرون من الرجل الذى تمكن من الإفلات من قبضتهم بعد أن كان على وشك الوقوع فى شباكهم وياله من صيدة ثمين ورست السفينة على شاطئ إحدى الجزر فى قلب بحر قزوين واستقر به الأمر للعيش داخل إحدى القلاع المهجورة ليعانى الفقر والوحدة والاغتراب عن الأهل والوطن والجاه والعز والنفوذ والسلطان.

ويبدو أن الرجل لم تطب له تلك الحياة الخشنة الجافة الغليظة وهو الذى كان ينام على فرش من حرير ويرشف الماء فى أوانى من ذهب ويأكل فى قوارير من الياقوت فكيف ينتهى به الحال إلى تلك الحياة القاسية القاحلة يا لها من حياة غادرة ماكرة لمن وضعها نصب عينيه ودان لها وخضع لمباهجه واستسلم لبريقها.

لقد أحس الرجل بالحسرة والألم من هذا المصير الذى آل إليه ومن ثم أصيب بداء عضال تمكن منه حتى وهن العظم وضعف القلب وشاخ العقل فلفظ أنفاسه الأخيرة على شاطئ تلك الجزيرة التى دفن فيها بثيابه حيث تعذر على من حوله تكفينه وكأنه بتلك الميتة الغادرة يشرب من كأس الغدر الذى سقاه لخصومه ومحبيه الذين غدر بهم فغدرت به الدنيا وما أقسى غدرها على من كان فى سلطانه وملكه وجاهه وثرائه.

* * *

الفصل السادس
الطريق إلى السقوط الكبير

بعد أن أخفقت الفرقة العسكرية التتارية التى تحملت عبء القبض على السلطان محمد بن خوارزم الذى لاذ بالهرب فى إحدى جزر بحر قزوين والتى عجزوا عن تحديدها عادت الفرقة تدق طبول الفرح وتترنم بأناشيد النصر بعد أن تهاوى على يديها عرش من زعم وادعى أنه حامى حمى ديار الإسلام وعاهل المسلمين.

وفى طريق عودتهم سلكوا شاطئ بحر قزوين بغية الاستيلاء على (مازندران) الإيرانية وقد خضعت لهم دون أية مقاومة رغم أن تلك البلدة قد اشتهرت بالقوة والبأس والشجاعة وصلابة قلاعها وجسارة رجالها وكأن وباء التتار قد تفشى فى قلوب المسلمين فخارت قواهم وتضاءلت حيلتهم وتهاوت حصونهم وترنحت قلاعهم. وكما هى عادة الجيش التتارى راح يمارس هوايته المحببة إلى قلبه فى ذبح الرجال وكسر أعناق الشباب وأسر الأطفال لبيعهم فى سوق العبيد واغتصاب النساء والاستحواذ على الحسناوات منهن وأسرهن لممارسة الرذيلة والفحشاء ثم سرعان ما عم الخراب أنحاء المدينة واشتعلت الحرائق وساد الدمار فتعالت الصرخات التى هزت أرجاء المدينة الخاوية عروشها!!

ومن خلال تلك المدينة اتجه التتار رغم قلة عددهم الذى لم يتجاوز أكثر من عشرين ألفا إلى إحدى المدن الإيرانية أيضا وتدعى مدينة (الرى) وقبل أن توشك جحافلهم على دخول المدينة راح نفر من الذين تجرى الخيانة فى عروقهم مجرى الشيطان فى الدم يبلغ قائدهم أن آل خوارزم يختبئون جميعا فى إحدى القلاع المجاورة لمدينة (الرى).

وبغير تردد انطلق قائد الحملة بنفسه للوقوف على حقيقة الأمر حتى تولى بنفسه مهمة القبض عليهم ونهب ما فى حوزتهم من مجوهرات ونفائس ثمينة ونادرة وأموال لا حصر لها ونساء جميلات وخادمات ووصيفات والدته السلطانه «طرخان خاتون» التى أصابها الذهول بعد أن علمت أنها قد باتت أسيرة فى قبضة التتار.

بعد إتمام تلك المهمة التى لم تكن ضمن حسابات الفرقة العسكرية الصغيرة واصلت زحفها نحو مدينة الرى كبرى المدن الإيرانية وبالطبع كانت المدينة تركع جاثمة على ركبتها تنشد العفو والصفح والتضحية بكل ما لديها فداءً لأرواح رجالها الذين تجمدت بداخلهم الشجاعة وكأنها من تراث الماضى وذكرياته الجميلة.

ولعلى أزيد وأكرر أن الهمجية التترية لم تسلم منها بلدة ولم ينجُ منها إقليم حيث كان السلب والنهب والقتل والحرق والتدمير واغتصاب النساء وخطف الأطفال هى أهم معالم وملامح الجيش التترى.

لقد أضرم التتار النار فى جميع القرى المجاورة لمدينة قزوين لترهيب الأهالى وإثارة الرعب فى نفوسهم حتى لا يتجاسر أحدهم ويدعو للخروج لحربهم ومقاومتهم كان الأسلوب التتارى قد أتى ثماره مع هؤلاء الذين ماتت بداخلهم الشجاعة التى آن لها أن تنتقل إلى مقبرة الأبطال الشجعان والبواسل الذين استشهدوا فداء لإعلاء راية لا إله إلا الله محمد رسول الله وحرصا على عزة أوطانهم وعفة أعراضهم.

أما هؤلاء القوم الذين فتنتهم الدنيا وغرتهم الأمانى فقد استحقوا هذا العقاب جزاء على ما اقترفوه فى حق دينهم وعقيدتهم وأنفسهم التى هانت عليهم فهانوا على أعدائهم.

* * *

سقوط أذربيجان المهين

بعد أن خضعت جميع البلدان المجاورة والمطلة على بحر قزوين راح جيش التتار يقصد الجهة الغربية من البحر وذلك لاحتلال أدربيجان وسلب ما فى حوزة أهلها وتدشينها ضمن بلدان سيد العالم جنكيز خان الفاتح المغولى.

كانت أذربيجان معروفة بمناخها القارس وأمطارها الثلجية وهو ما لا يتحمله جيش التتار الذى اعتاد على مناخ متوسط الحال إن حاكم أذربيجان «أوزبك بن البهلوان» وقد كان بالفعل بهلوان حيث كان له حظ وافر من لقبه لاعتياده شراب الخمر حتى الثمالة والرقص أمام الحاشية والاستخفاف بمن حوله وكثيرا ما كانت تصدر منه تصرفات يبدو من خلالها كأراجوز أو بهلوان يثير الضحك والسخرية.

نهايته . . اتفق هذا البهلوان الثمل مع قادة جيش التتار على الاستلام وعدم الاشتباك مقابل تسليم ما لدى أهل المدينة من أموال ومجوهرات ودواب.

أما الذى يثير الغثيان من هذا الحاكم وشعبه أنه راح يقيم الأفراح على نجاحه فى تفويت الفرصة على الأعداء التتار فيما كان التتار قد تهللت أساريرهم بعد هذا الاتفاق حيث كانوا يخشون اقتحام هذه البلدة أثناء هطول الأمطار الغزيرة حتى قيل أن قائد الحملة راودته فكرة المرور على هذه البلدة دون أن يقتحمها تفاديا لمناخها العصيب وخوفا على أرواح جنوده الذين لا يتحملون عناء هذا المناخ الشتوى القارس.

ناهيك عن ذلك لقد كان بمقدور هذا الحاكم الثمل أن يخوض حربا لاهوادة فيها مع هؤلاء الذين أعياهم السير فضلا عن قلة أعدادهم بالقياس مع أعداد جيش أذربيجان وسكانها بيد أن الخوف بدا كالسكين المسلط على رقاب الحكام والشعوب

معاً وللتأكيد على ذلك اتجه التتار بعد أن حملوا معهم ما خف وزنه وغلا ثمنه إلى منطقة الساحل الغربى لمـنطقة بحر قزوين وراحت جحافلهم الغشـومة تشن غاراتها على المنطقة الشرقية لمدينة أذربيجان قاصدين المنطقة الشمالية.

* * *

استسلمت أرمينيا فسقطت جورجيا

تقع أرمينا فى غرب أذربيجان وقد اضطر التتار إلى توجيه حملة عسكرية لتأديب قبائل (الكرج) المسيحية التى أعلنت تحديها لجيش التتار واستعدادها لصد هجماته وإنزال الهزيمة به وطرده شر طردة وهو ما أثار حنق الجيش المغولى.

وبالفعل دارت بين التتار وقبائل الكرج حرب ضروس دارت رحاها ثلاثة أيام سقط خلالها الآلاف من أبناء أرمينيا بيد أن النصر كان من نصيب التتار الذين كانت خبراتهم الطويلة عنصرا بارزا فى إحراز النصر على هؤلاء الأرمن الذين تجاسروا على التتار وأظهروا رغبتهم فى عدم الانصياع لقوتهم.

* * *

تخريب إقليم فرغانة

لم تقف مذابح ومجـازر التتار عند حدود أرمنيا وجورجيا عام ٦١٦ من السنة الهجـرية بل كان عـام ٦١٧ هو الأعنف والأبشع فى تاريخ المسلمـين والأعظم فى تاريخ التتار.

لقـد أصدر جنكيـز خـان أوامره بتنـصيب بعض عـمـاله لإدارة شؤون البـلاد والأقاليم التى تسـاقطت كعناقيد العنب وتعـيين ولاته وأتباعه فى تحـصيل الضرائب والجبايا ووأد أية محاولات لتأليب الشعوب الإسلامية ضد الطغاة التتار.

وبعد أن اطمـئن جنكيز خان لغـياب الشاه محـمد وسقـوط معظم البلدان التى كانت فى حوزة ملكه الواسع المترامى قرر جنكيـز خان المضى قدما فى بسط نفوذه وهيمنته على باقى مدن الشاه التى كانت قد بلغها النبأ الخطير.

وانطلقت وفق أوامر جنكيز خان حملة عسكرية بلغت نحو خمسة وعشرين ألفا من جند التتار إلى إقليم «فرغانة»[1] الواقع على بعد نحو خمسـمائة كيلو متر إلى الشرق من سمرقند.

كان أهالى تلك المدينة قد روعتهم أخبار التـتار وراح قادتهم يبحثون عن مخرج لتلك الكارثة التى أوشكت على الوقوع بين ساعة وأخرى..

وكمـا كان معتـادا آنذاك راح أهالى المدينة يتنازعون فيـما بينهم حتى تصـارعوا وتشرذموا وانقسموا بين من يطلب الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ومن يدعو إلى التلويح برايات الاستسلام والخنوع تجنبا لإراقة الدماء حتى استقر الرأى على ما لوح به دعاة الهزيمة والركوع.

(١) أوزبكستان حاليا.

وهكذا وجد التتار أبواب اقليم فرغانة مفتوحا على مصراعيه حتى كاد الأهالى يطلقون الزغاريد وينثرون الورود على رؤوس الفاتحين الذين هزوا أرجاء المدينة بصياحهم الأثير هوهوهوووووه لتنضوى فرغانة تحت راية جنكيز خان بعد أن أخرجت البيوت أثقالها من الذهب والمال طواعية دون قسر أو جبر ولكن هل نجت فرغانة من الدمار والخراب بعد كل مظاهر الخنوع والخضوع والمهانة والمذلة أم أنها قد احترقت وتهدمت على يد الطغاة والقتلة والمجرمين الذين تطرب نفوسهم وترقص قلوبهم وتبتهج صدورهم كالبوم كالغربان الواقفة على تلال الخراب وبحور الدم وأنهار الدمع.

بالطبع لم تكن فرعانة بمنأى عن هذا الخراب بل كانت من أكثر المدن التى سالت فيها الدماء وانتهك المغول فيها أعراض النساء وكأن المغول قد عاقبوهم لنزولهم على دعوة قادتهم الأذلاء الجبناء.

وهكذا من لم يمت بالسيف مات بغيره ومن لم يمت ميتة الشهداء مات ميتة الجبناء غير مأسوف عليه.

* * *

ترمذ مدينة الأشباح

فى أعقـاب سقوط إقليم فرغـانة تحت سنابك خيل جنكيز خـان صدرت أوامر جديدة بعد أن استتبت الأمور واستـقرت الأحوال وأبدى الأهالى انصياعهم لأوامر الجيش التتارى والامتثال لتعليماته دون سخط أو تذمر.

أما الأوامر التى أصـدرها جنكيز خان فقد كـانت تتعلق بمتابعة سـير الحملة إلى البلدان الأخرى التى كانت ضمن ممالك الشاه محمد غفر الله له.

وكانت مدينة (ترمز)[1] الواقعة على بعد نحو مائة كيلو متر جنوب سمرقند هى التى قد أصابها الدور أو الدوار أو سهم الخراب والدمار..

ورغم أنها المدينة الـتى أنجبت (الترمـذى) أحد علماء وأئمـة الإسلام وحجـتهم الذى أصدر مؤلفـه العظيم (السنن) والذى يتصدر المكتبات الإسـلامية بعنوان السنن للترمذى؛ فـقد كانت المدينة هى الأخرى نموذجا يـدعو للرثاء والأسى والحزن على أحوال المسلمين حينئذٍ وما أصابهم من ضعف وذل وخوف وهوان.

وبغيـر إسهـاب فى عرض وشرح وتـفسيـر وتوضيح أسـباب التسليـم الفاضح للمسلمين والاجتياح الكاسح للتتار سقطت مدينة الأمام الذى لو كان بين أهلها لقاد بنفسه كتائب النضال والجهـاد وسلك بهم طريقا إلى الجنة ابتغاء وجه الله ولا أعرض عن الدنيا واستدار بوجهه عنها فى عزة وإباء وشموخ المؤمن.

وفى غضون ساعات من الاجتياح التتـارى لمدينة ترمز أصبحت مدينة أشباح بعد أن تهدمت ديارها وسقطت قلاعها وأسوارها وحصـونها واحترقت مساجدها بنيران الحقد والغل المغولى للإسلام وللمسلمين.

---

(١) تركمنستان حاليا.

وكما كان مألوفا لدى جيوش التتار راح قائدهم يقف فى وسط المدينة يستدعى أهالى المدينة الذين خرجوا من ديارهم غير آمنين على أنفسهم من غدر التتار وخيانتهم وتقديسهم لسفك الدماء وقطع الرقاب وإشاعة الخراب.

وحين اجتمع الأهالى وعلى رأسهم وجهاء المدينة الذين كانت فرائصهم ترتعش خوفا وفزعا من مصيرهم على يد التتار راح القائد المغولى يطالب بلسان فصيح أهالى المدينة بتجميع مدخراتهم وممتلكاتهم وثرواتهم طوعا قبل أن تلقى الرقاب جزاءها إذا تقاعسوا وتكاسلوا وهدأت حميتهم فى جلبها واستخراجها من مكامنها ومخابئها.

وهرول الأهالى كل إلى داره يبحث عن نجاته بيده فى سباق محموم لإبداء الولاء والإخلاص وقبول الرضا واستجداء من لا تسكن الرحمة قلوبهم القاسية وصدورهم المتأججة بنيران البغض والكراهية لتصبح مدينة ترمز بين عشية وضحاها ضمن مستعمرات المغول.

* * *

انهيار قلعة كلابة

أما عن سقوط قلعة (كلابة) فالقلب ينزف دما والعين تزرف دمعا أسفا وحزنا على تلك القلعة الحصينة الرهيبة التى كانت قد شهدت من قبل بطولاتٍ وأمجاد على مر القرون الفائتة ولولا أن أهلها قد شغلتهم أموالهم وأولادهم فكانوا أسرى للدنيا وفتنتها لكانت ملاذا وملجأ آمنا لهم وصونا لأعراض نسائهم كانت سيرة هذه القلعة قد ترامت أصداؤها إلى آذان التتار الذين راودتهم المخاوف واجتاحتهم الهواجس خوفا من استبسال تلك المدينة ذات القلعة العاتية.

أما أسباب الرعب الذى اجتاح التتار فقد تمثل فى خشيتهم من استبسال أهالى تلك القلعة وعزمهم كما أشيع عنهم عبر التاريخ نضالهم وكفاحهم وجهادهم وجسارتهم وشجاعتهم أمام الغزاة والمعتدين علاوة على أنه سيكون لهذا الاستبسال وإحراز النصر على جيوش التتار أثره فى تداعيات خطيرة أهمها من وجهة النظر المغولى الاستخفاف بجيش التتار وبقائده الخاقان جنكيز خان بعد أن كانت الدنيا قد تملكها الرعب من سيرته وتمثلت المخاوف المغولية أيضا من إمكانية التمرد والعصيان داخل البلدان التى أخضعها جيش التتار لنفوذها ومن ثم كان التتار ولهذه الدوافع يحسبون لتلك القلعة الحصينة ألف حساب وبات الانتصار عليها بمثابة قفزة هائلة وانتصار استراتيجى يجب إحرازه مهما كانت التحديات والصعبات.

وعلى أثر تلك الخلفية التاريخية والعسكرية تأهب جيش التتار بعد أن حدد عناصر القوة ونقاط الضعف داخل القلعة وكيفية اختراقها حتى لا يتمكن الأهالى من دحرهم وطردهم شر طردة.

لكن ورغم حصانة القلعة وما اشتهر عن أهلها من بسالة وقوة وصلابة وجسارة سقطت حصونها وأبراجها ورجالها كما تتساقط أوراق خريف سبتمبر الأمر الذى أثار دهشة واستغراب قادة التتار الذين ظنوا للوهلة الأولى أنهم إزاء خطة خداعية على أعلى مستوى وأن النصر الذى أحرزه لم يكن سوى فخ عبقرى نصبه المسلمون الأذكياء بيد أن الواقع قد تجلى بمرور الوقت حيث كانت هزيمة المسلمين هى النتيجة النهائية وأن ما راود مشاعر التتار ما هى إلا أوهام وخيالات.

* * *

الفصل السابع
خوارزم والسقوط الكبير

وا أسفاه وا حسرتاه على الدولة الخوارزمية التى انفرطت كحبات مسبحة كان خيطها أهون من خيوط العنكبوت وها هى شمسها قد أوشكت على المغيب وثمة خيوط باهتة صفراء تسطع على استحياء فى انتظار الليل القادم لكى يرخى سدوله.

كانت خراسان لا تزال حرة مستقلة لم تقع بعد فى مستنقع التتار ولم يقذف بها جنكيز خان فى أفرانه الحارقة حتى أن أهلها كانوا جميعا يتضرعون إلى الله أن يصب جام غضبه على هؤلاء الأبالسة الذين باتوا على مقربة من أبواب مدينتهم التى كانت ملء السمع والأبصار.

كانت البداية لتدمير إقليم فراسان فى مدينة بلخ[1] تلك التى تقع جنوب مدينة ترمذ وقد اقتفت أثر المدن التى سبقت سقوطها المروع حيث أبدى وجهاء (بلخ) رغبتهم لقادة جيش التتار فى تسليم مفاتيح المدينة عبر اتفاق ودى تجنبا لصدام دموى وهو العرض الذى طاب لقادة التتار الذين تسلموا مفاتيح المدينة على طبق مذهب.

كانت الفرحة قد عمت الفريقين حيث راح قادة التتار يقطعون قسطا وفيرا من الراحة والاسترخاء داخل المدينة التى نالت عهد الأمان من الذين لا يحفظون حرمة الأمان.

كانت المدينة المسكينة قد ظنت خيراً أن الله قد استجاب لدعائها وأنه سبحانه وتعالى قد ألقى بالرحمة والشفقة فى قلوب التتار بعد أن شل أيديهم وعقد ألسنتهم جزاء قوم مؤمنين بيد أن التتار قد ضاقوا ذرعا من السلام الذى رفرف بأجنحته

---

(١) شمال أفغانستان حاليا.

على ربوع المدينة وهم الذين يعشقون بحور الدم وفيضانات الدمع ويرقصون على آهات الثكالى وصرخات اليتامى وصياح الأرامل وأنين الجرحى.

وراح القادة التتار يطلبون مثول وجهاء المدينة بين أيديهم فى الحال لعرض فكرة راودتهم تقضى بانضمام جيش المدينة وانخراط أهلها فى صفوف الجيش التتارى لاجتياح مدينة مجاورة تدعى (مرو).

أما موقف وجهاء المدينة وأهلها فحدث عنه ولا حرج حيث راح بعضهم يقسم كاذبا أنهم كانوا بصدد طرح هذه الفكرة على قادة التتار ولو كان هناك متسعا من الوقت ليتبين لهم صدق ما يزعمون.

وراح البعض الآخر يبادر من تلقاء نفسه أمام قادة التتار لتحديد السمات التى يتصف بها أهالى المدينة وما يمكن أن تنعكس على جيش التتار بالإنجازات والمكاسب التى ستبعث السرور عليهم من روعة أدائها!!

كان قادة التتار غارقون فى ذهولهم من هول ما يسمعون حتى أن بعضهم راح يتساءل أهؤلاء القوم مسلمون حقا؟ وهل دينهم يدعو إلى هذا النفاق والخنوع والإذلال؟ كان المشهد يدعو للأسى والأسف والدهشة من هؤلاء الذين باعوا أنفسهم بثمن بخس.

أما الفكرة التى طرحها التتار فلم تكن هى غاية ما يهدفون بل كانوا يطمعون فى أن يتقدم أهالى (مدينة بلخ) قوات جيش التتار عند اجتياح مدينة (مرو) نظير عهد الأمان بالطبع كان الثمن فادحا والمقابل مهينا ومشينا والموت أهون على النفس منه إلا إذا كانت النفس ذليلة رخيصة آثمة ظالمة.

ترى هل رضى أهالى بلخ بهذا الطرح الشيطانى أم أن منهم من راح يبدى سخطه واستياءه وامتعاضه ورفضه المشاركة فى قتل وذبح وإهدار دماء أهالى (مرو)

المسلميـن المسالمين الآمنين الذين لم يرد على خـاطرهم أن هناك من المسلمين من يتربص بهم ويرفع السيف مع أعداء الله على رقابهـم؟!

ترى هل استقبل أهالى بلخ هذا الأمر بالاستياء أم بالسكوت وهو من أهم وأبرز معالم وملامح الرضا؟ من أسف استقبلوا تعليمات التتار بالرضا والترحاب ومن لم يرض بما سمع فقد لاذ بالصمت لا يجرؤ على الكلام.

* * *

مذبحة مرو

تقع مدينة (مرو)[1] على بعد أكثر من أربعمائة وخمسين كيلو مترا غرب مدينة بلخ الأفغانية وقد كانت من أكبر مدن إقليم خراسان من حيث المساحة والكثافة السكانية لاسيما وأن أهلها قد اشتهروا بالبأس والشجاعة والعناد والتحدى وربما كان ذلك من أهم الدوافع التى دعت المغول للاستعانة بأهالى بلخ ليتصدروا طليعة الحملة لتلقى سهام أهالى المدينة لتفادى سقوط جنودهم وحرصا على حياتهم لمجابهة التحديات الكبرى التى تنتظر جيوش التتار عند فتح إقليم خوارزم واجتياح مناطق نفوذ الدولة العباسية ذلك الحلم الذى كثيرا ما داعب رأس جنكيز خان.

نهايته . . انطلقت الحملة المغولية الجبارة نحو الهدف الذى حدده جنكيز خان وقد أسند قيادة تلك الحملة بالتحديد دون غيرها لأحد أبنائه الذى أبلغ والده عبر الرسل أنه أرغم أهالى (بلخ) للمشاركة فى هذه الحملة الضخمة والمفزعة من ناحية أخرى كانت مدينة مرو كما تنبأ المغول تتأهب لتلك المواجهة لاسيما وأن وجهاء تلك المدينة وشيوخها قد اجتمعوا عقب إبلاغهم بنبأ التتار وزحفهم وأجمعوا على ضرورة التصدى والمقاومة والتضحية والفداء والموت فى سبيل الله بات أسمى أمانيهم على العيش أذلاء جبناء ضعفاء بؤساء.

وخارج أسوار مدينتهم تمركز نحو مائتى ألف من رجالها الذين بايعوا على الموت وافتدوا أنفسهم فداء لدينهم ووطنهم وسرعان ما أقبل جيش التتار بصرخاته المدوية التى تزلزلُ القلوب وتكاد تخلعها من الصدور حتى ران الصمت على جيش المسلمين الذين حزموا أمرهم على الصمود واحتدمت المعركة الشرسة العنيفة بين

(١) إحدى مدن دولة تركمنستان.

الجانبين وكادت الغلبة للمسلمين بيد أن الأعـداد الكثيفة والأسلحة المتميزة والخطط العسكرية البارعة واندماج مسلمى (بلخ) الخـونة فى جيش التتار قد أدى إلى انهزام مسلمى (مرو) الذين سـقط منهم نحو مائة وخمسين ألف شـهيد من أغلى رجال الإقليم وأشدهم بأسا وقوة وليت خونة بلخ قد جذو حَذوهم وماتوا على دينهم.

ومع تقهقر الجـيش الإسلامى وانكماشه وتضاؤل أعداده بعد اسـتشهاد الآلاف راح الهـمج يبيـدون الزرع والضـرع ويحرقـون الديار ويأسـرون الحسناوات بعـد اغتصابهن ويسلبون وينهبون ويسرقون ويدمرون حتى بات متعذرا استكشاف معالم المدينة التى أضحت تلاً من الرماد الأسود.

وعلى درب هذا الجـيش البـاسل أصر أهـالى مدينة مـرو على إغـلاق أبواب مدينتهم فى وجه التتار وراح الشيوخ والحكماء يقودون الأهالى الذين تجاوز عددهم حينئذ حوالى سبعمائة وخمسون ألف من مختلف الأعمار فى تحدى جلى وإصرار لا تخطئه الأعين للجهاد والفداء.

من جانبها ضـربت جيوش التتار حصارا قويـا حول أسوار المدينة وعلى منافذها بهدف تجويع المدينة وشل حركتها لإرغامها على الاستسلام.

ولأن المؤن قد نفدت وبدت المدينة ذات الكثافة السكانية قد أوشكت على الوقوع فى براثن مجاعـة قاتلة لا يتحملهـا الأطفال ولاسيما الرضع وشـيوخ المدينة المسنين وأمام شبح المجاعة وما سيترتب على ذلك من أوبئة وأمراض فتاكة دب الخلاف بين أهالى المدينة حيث كان فريق يدعو للاستسـلام وفك الحصار رحمة بالصغار والآباء والأمهات والجرحى والمرضى وفريق أخر يتمسك بالصمود حتى الرمق الأخير.

وكما هـى العادة فى مثل هذه الأحوال انتـصر الفريق المستـسلم وربما فى حالة تلك المدينة الباسـلة كانت لهذا الفـريق دوافعه وأعذاره وتبـريراته على عكس المدن الأخرى التى استسلمت فى ذلة ومهانة.

ويرى المؤرخون أن ابن جنكيز خان قائد هذه الحملة قد بعث برسالة إلى قائد مدينة (مرو) يدعوه للاستسلام وفتح الأبواب مقابل بقائه حاكما على المدينة وهى الأكذوبة التى صادقت هوى فى نفس الحاكم الساذج الذى استجاب فى التو وأبلغ التتار استسلام مدينته.

وعلى الفور دخلت جحافل التتار شوارع المدينة بعد فتح أبوابها على مصراعيها وقد أحسن القائد التتارى استقبال حاكمها الأبله ثم سرعان ما طلب منه إحضار وجهاء المدينة لتنصيبهم جميعا فى وظائف رفيعة ومرموقة لتنفيذ مخطط النهوض بالمدينة والارتقاء بمستواها تحت ظل جنكيز خان لم يتردد الرجل وهل بمقدوره أن يبدى شيئا من التردد وأطلق ساقه للريح لاحضار وجهاء المدينة الذين صدقوا مزاعم التتار ووقفوا جميعا بين يدى القائد التتارى الذى أصدر إشارة لقائد حرسه الخاص سرعة تنفيذ بذبح هؤلاء السادة على مرأى ومسمع من أهالى المدينة الذين أصابهم الذهول!!

أما قائدهم المسكين فقد راح يعض بنان الندم قبل أن يسقط مغشيا عليه من فرط ما أصابه من رعب وفزع أمره قائد المغول بسرعة تسليم قائمة تضم أسماء كبار ومشاهير التجار وأصحاب الأموال فى المدينة وطالبوه بإضافة أسماء أثرياء المدينة وفنانيها وصناعها العباقرة وإلا كان القتل مصيره ليلحق بما سبقوه.

افتدى الرجل نفسه أو هكذا ظن وراح يكتب على عجل ويسجل بأيادى مرتعشة الأسماء واحدا بعد الآخر وحين حضرت من سجل أسماؤهم قام القائد بفصل الفنانين عن التجار والأثرياء الذين أحضروا ثرواتهم وسلموها صاغرين ثم سرعان ما أمر بذبح القائد والتجار معا وأسر الفنانين لحين إرسالهم إلى منغوليا حتى تستفيد البلاد من إبداعاتهم ومواهبهم!!!

ومن فرط سذاجة أهـالى مدينة (مرو) الباسلة ساد بينهم ظن أن جيـش التتار قد اكتفى بذبح هؤلاء الذين كانوا من علية القوم وأثريائه فـضلا عن قتل أكثر من مائة وخمـسون ألف من شبـاب المدينة ومن ثم كانت النجـاة والاستـمتاع بالحـياة رغم قسـوتها بات من نصيب أهلها الذين مازلوا على قيد الحياة.

لكن كان ابن جنكيز خان يتميـز غيظا ويعض على نواجزه غضبا من تلك المدينة التى تجاسرت وأعلنت عـزمها على مقاومـته وقتاله ومن ثم أصدر الهـمجى قراره الرهيب بإعدام جمـيع أهالى مدينة مرو وذبحهم دون هوادة وبغيـر تباطؤ للمضى قدما فى إنجاز بقية المهام التى أوكلها إليه والده السفاح جنكيز خان.

وفى التـو انطلقت السـيوف تقطـع رؤوس الأطفال والأجنة فى بـطون أمهـاتهم والشيوخ والنساء والفـتيات والصبية حتى بلغ عدد الذين تناثرت جـثثهم فى شوارع مدينة مرو المنكوبة حوالى سبعمائة ألـف قتيل كما ورد فى كتاب الكامل فى التاريخ للعلامة ابن الأثير الجوزى!!!

وهكذا أبيدت مرو عن كاملها وفقدت هويتـها وعمقت رجالها وأهلها وعاشت ردحا من الزمان خاوية على عروشهـا إلا من الكلاب والذئاب والحيوانات المفترسة والطيور الجـارحة والبوم والغربان حـيث عاشوا جمـيعا على بقـايا تلك الجثث التى نهشت جميعها حيث لم يكن هناك من يتولى دفنها!!!

صحيح أن منطقة تسـمى (الطالقان) تلك التى تقع فى شـمال شرق أفغانستان قد تعرضت لمثل هـذه المذبحة بل كانت هى التى تعـرضت لها قـبل أن تجتاح جـيوش التتار مدينة مرو حيث إن هذه المديـنة قد رفضت الاستسلام ولأن هذه المدينة ذات حصون وقلاع وأسـوار وأبراج يتعذر على التتار اختراقـها واجتياحها فقـد استبسل أهال (طالقان) الذين أصروا على نضـالهم ومقاومتهم حتى قيل إن الحـصار التتارى ظل شهورا رغم الإمدادات التى أرسلها جنكيز خان.

ومن أسف لم يكن بمقدور المدينة الباسلة الاستمـرار فى هذا الصمود ومواجهة هذا الحصار لنفـاد الطعام مما أدى إلى سقوطها فى أيادى الطغـاة الذين ذبحوا أهلها جميعـا لتكون تلك مجزرة المدينة العصمـاء مقدمة لمذبحة مرو الرهيـبة لكن سوف يظل التاريـخ يشير بالبنان إلى تـلك المدن التى أبت الخضوع وكـرهت الاستـسلام وآثرت الموت على حياة ذليلة تأباها النفـس الذكية التقية النقـية وإذا كان رواة التاريخ قد أشـاروا فى مجلداتهم أن مدينة مـرو قد انتهت إلى غـير رجعة بعـد أن دمرها التتار وأحالوها إلى جبل من الركام رغم ذلك ستظل مرو تبرهن على أن هناك من افتـدى دينه ووطنه بحياته وأن هناك من لا تـروق له الحياة تحت سنابك خـيل الطغاة والسفاحين.

* * *

مجزرة نيسابور

لم تكن المذبحة المروعة والبشعة التى شهدتها مدينتى طالقان أو مرو هى أخر الجرائم والمآسى التى اقترفها الطغاة والقتلة بل استهوت تلك اللعبة القذرة قادة المغول وكأنهم يصطادون أسراباً من العصافير أو الطيور المهاجرة حيث لم تكن قلوبهم تهتز أو تقشعر أبدانهم أو تشيب بعض خصلات من رؤوسهم لفيضانات الدم التى تدفقت وجرت كأنها تجرى من قمم التلال إلى السهول والأودية.

ومن أسف لم تكن مدينة نيسابور[1] أسعد حالا من مدينتى طالقان ومرو بل شهدت هى الأخرى مجزرة سيندى لها جبين التاريخ مادامت فى الأرض حياة تنبض بها قلوب البشر.

والواقع أن مدينة نيسابور تتمتع بمساحة جغرافية شاسعة وواسعة ولأن أهلها قد عقدوا عزمهم على محاربة التتار بعد أن أثروا الشهادة وطمعوا فيها فقد كان جزاؤهم الذبح والنحر والقتل وقطع الرقاب..

كان أهالى تلك المدينة قد اتحدوا وتعاونوا على تشييد الحصون والأبراج وإغلاق المنافذ وتقوية الأسوار وتحصين القلاع وتوفير السلاح وتخزين المؤن لمواجهة العدو الذى يقترب كالأفعى من مدينتهم.

وحين حطت رحال التتار على أبواب نيسابور بلغهم أن المدينة لن تركع وستقاتل حتى النصر أو الشهادة وراح ابن جنكيز خان بخبراته العميقة وعبقريته العسكرية يفرض حصاراً شديد الإحكام على أسوار المدينة وجميع منافذها لحين نضوب المؤن ونفاذ الصبر واندلاع الخلافات بين أهلها كما جرى أمامه من قبل فى المدن التى

(١) تقع حاليا في منطقة الشمال الشرقي لدولة إيران.

سقطت بيـن يديه بعد أن حدث مـا ينتظره التتـار حيث أعلنت المدينة اسـتسلامـها وقبولها الخضوع لحكم التتار.

من جانبهم أسـرع الهمج فى دخول المدينة لممارسـة هوايتهم فى الذبح والتنكيل والتمثـيل بجثث القتلى بعد قطع رقـابهم أو كسر أعناقهم وانتهـاك أعراض نسائهم وخطف أطفالهم وفتيانهم العذارى.

لقد سيق رجال نيـسابور كالقطيع بعد أن تسلسلوا يتبع بعضـهم بعضا ينتظرون ساعـة خلاصـهم بسيـوف ضاقت ذرعا مـن كثرة الرقـاب التى تطايرت بنصـالها وحوافها المسنونة.

وهكذا أضحت نيـسابور مدينة لا تصلح لعـيش البشر لكنهـا كانت بيئة مـلائمة للحيوانات المقدسة والطيور الجارحة التى حطت أسرابها لالتهام جثث الأطفال والنساء والرجال والرضع حيث قد أبيدت المدينة بأسرها ولم يتـرك التتار بها رجلاً أو امرأة أو طفلا عقابا لهم على رفضهم الخنوع وإصرارهم على الجهاد والاستشهاد.

* * *

هراة

كانت هذه المدينة تـعد دون أدنى مبـالغة من أقوى البلدان الإسـلامية وأكـثرها إتساعا وعددا بيـد أنها قد لحقت بمن كان له قصب السبـق فى السقوط المهين على أيدى جنود جنكيز خان حيث كانت آخر قلاع إقليم خراسان.

والحقيقة أن مدينة (هراة)[1] قد خرجت عن بكرة أبيها شأنها فى ذلك شأن المدن الباسلة الطالقـان ومرو ونيسابور حـيث أجمع أهالى المدينة على التحـدى والإصرار على المقاومة رغم أنهم كانوا على يقين من أن التتار لا يقهرون.

كان ابن جنكيز خان لا يجهل أهمـية مدينة هراة وبأس رجالها ومن ثم اضطر إلى تدشين حملة هائلـة لاجتياحها وقـد أرسل مبعوثيه إلى وجـهاء المدينة للإذعان والاستسلام تجنبا لإراقة الدماء.

من جانبـهم قرر الأهالى الصـمود غير عـابئين بمغـبة هذا القرار رغم مـحاذير الرسل والتلويح أمام أعينهم للمذابح التى وقعت من قبل عقابا على التصدى وعدم الاستسلام.

أما حاكمـها الأمير (ملك خان) فلم يكن يمـيل إلى كلا الرأيين فلا هو بمرغب فى الاستسلام ولا تطيب له الدعوة للمقاومة إيمانا منه أن الذبح سوف يكون المصير المحتوم فى كـلا الحالتين ومن ثم راقت نفسه هو وحـاشيته للفرار بعـيداً عن أعين التتار.

وقبل أن يجتاح التتار المدينة التى استبسل أهلها كان الأمير (ملك خان) قد انطلق فى جنح الليل باحثـا عن مأوى أو جبل يعتـصم بداخله لعل رياح التتار العـاتية تمر

(١) تقع شمال غرب أفغانستان.

وتهدأ ليعود أدراجه مرة أخرى إلى مدينته سالما آمنا أما الواقع المرير أن الأمير الهارب لم يشأ العودة مرة أخرى لمدينته حيث رأى بنفسه فى أعلى قمة جبل قريب من المدينة كيف سويت هذه المدينة الكبيرة بالأرض لتتحول بعدها إلى قطعة من الجحيم حتى كادت صرخات النساء وآهات الرجال وبكاء الأطفال يصم آذانه هو ومن رافقه فى رحلة الهروب المهين.

وهكذا أطماع الحكم تسكن قلب الرجل حتى اضطر مواصلة رحلته البائسة إلى منطقة جنوب أفغانستان حتى يأمن شرور هؤلاء القتلة.

أما تداعيات وقوع مدينة هراة بين فكى الجيش المغولى فلك أن تتخيل ماذا جرى لأهلها وقد سبق وأن أشرنا لتلك الممارسات البشعة المريعة التى اعتاد المغول السفاحين على ارتكابها فى تحدٍّ صارخ للعالم الإسلامى رغم كثافته البشرية التى لو تحركت قيد أنملة للأمام على قلب رجل واحد ما جرؤ هؤلاء الهمج على اقتراف مثل هذه الآثام.

لكن كان العالم كما تنبأ له النبى ﷺ أن الأمم سوف تتداعى عليه لكثرتهم التى باتت أشبه بغثاء السيل ومن ثم لم يكن مستغربا ما جرى وقد تنبأ به سيد العالمين الذى تخلى المسلمون آنذاك عن تعاليم دينه فسقطوا صرعى لفتنة الدنيا وزخرفها.

وها هى هراوة أخر حبات عقد خوارزم تعلن السقوط الكبير والمهين وإن كنا نعزى أنفسنا فى استبسال أهلها ومن قبلها شعوب المدن الأربع الذين جاهدوا وثابروا وصبروا فاستشهدوا وماتوا وهم فرحون.

* * *

طوفان خوارزم

هى المركز السياسى والاقتصادى والرئاسى والاستراتيجى وتجمع المسلمين ومقر عائلة حكامها وأقوى وأكبر وأضخم وأكثر بلاد إقليم خوارزم شاه قوة ومهابة.

كانت خوارزم[1] تقع على نهر جيحون وقبله تجار أسيا والشام وأوروبا وكانت تضم بين جنباتها أكثر سكان الأقليم كثافة وشجاعة وبسالة.

ولأن جنكيز خان كان يدرك عظمة هذه البلدة ومدى أهمية سقوطها فى نفوس المسلمين كإشارة جلية لسيطرة التتار على جميع مدن خوارزم بوصفها مقر العائلة الحاكمة التى تحصنت وحشدت قواهاوحفرت الخنادق وشيدت المخابئ وتكدست مخازنها بالمؤن استعدادا لحرب طويلة المدى.

كانت المدينة قد أنهت كافة استعدادتها لملاقاة التتار الذين زحفت جيوشهم الجرارة لدك حصون المدينة الباسلة التى ظلت طوال خمسة أشهر تحت مظلة الحصار التتارى تكافح وتناضل حتى كاد اليأس يعصف بقوات التتار التى أرسلت إلى جنكيز خان تناشده المدد والدعم.

وعلى الفور راح جنكيز خان يبعث بجحافل مغولية لا حصر لها لمؤازرة الجيش الذى ضاق ذرعا من طول أمد الحصار.

بعد وصول الإمدادات العسكرية استطاع الجيش المغولى التسلل عبر أحد المنافذ الاستراتيجية ودارت معارك رهيبة سقط خلالها الآلاف من الجانبين.

ولما اشتد وطيس المعركة وكاد أهالى المدينة يحرزون النصر راح جنكيز خان يرسل تعزيزات عسكرية لتقوية التتار قبل أن تدور الدائرة عليهم حتى غرقت المدينة فى بحر من الدماء التد تدفقت من أعناق أهالى المدينة ونسائها وأطفالها.

---

(١) تقع الآن بين أوزبكستان وتركمنستان.

كانت هذه المعركة من أصعب المعارك التى خاضـها التتار طوال حملتهم الشرسة على إقليم خـوارزم حـتى أن الأهالى ورغم سـيول الدم قـد عـقدوا العـزم على مواصلة المقاومة والنضـال والجهاد فاستبسلوا وتصدوا فى عزة وإبـاء حتى كاد التتار ينسحبون من المدينة تحت وطأة ضربات الأهالى الموجعة.

كانت الخطة قاتلة وغادرة حيث انطلقت المياة كـالفيضان على مدينة خوارزم حتى سبحت المدينة كلها فى بحر لجى حتى ظن أهل المدينة أن طوفان قد أصاب المدينة.

ترى.. هل استسلمت المديـنة ولاذت بالهرب بعد أن حاصرتهـا المياة وأغرقت ديارها من جهة وجيوش التتار تتربص لهم من جهة أخرى؟

كلا.. لقـد أبى الأهالى أن يلوحوا بالرايات الـبيضـاء وآثروا أن يلقى كل منهم حتفه شهيدا على أن يقف جاثما على ركبتيه بين يدى التتار ذليلاً.

وهكذا اندثرت مديـنة بأكملها بما عليـها من بشر وديـار وقطيع ودواب قيل إن عدد شهدائها بلغ نحو المليون حيث كانت خوارزم أكبر مدن الإقليم على الإطلاق وأكثرها قوة وبسالة ليطوى التتار صفحة دولة خوارزم رغم أن جلال الدين بن الشاه محـمد سلطان الدولة الذى كان قد لاذ بالفـرار لايزال بحكم قبضـته على جنوب دولة خوارزم التى لم يقترب منها التـتار كان جنوب دولة خوارزم يتكون من مناطق جنوب ووسط دولتى باكسـتـان وأفغانـستان وكـانت مدينة غزنة[١] هى المقر السياسى للدولة وللأمير جلال الدين.

* * *

(١) تقع على بعد مائة وخمسين كم جنوب مدينة كابول عاصمة أفغانستان.

الفصل الثامن
جلال الدين والتتار وجها لوجه

بعد هروب السلطان محمد بن خوارزم إلى احدى جزر بحر قزوين كان ابنه جلال الدين قد سلك سبيلا آخر أراد من خلاله إعادة الإمبراطورية التى تهاوت عروشها وغربت شمسها على عكس والده الذى كان ينشد الحياة هربا من شبح الموت الذى لاحقه وطارده أينما حل واستقر.

وفى منطقة جنون ووسط أفغناستان تركزت قوات جلال الدين فى مدينة (غزنة) لإعداد جيش كبير يستطيع مواجهة التتار الذين يعيثون فسادا فى دولة خوارزم التى تعرضت لأكبر عملية سلب ونهب وحرق واغتصاب فى وتاريخها.

كان جلال الدين يتميز غيظا كلما تنامت لمسامعه أنباء اجتياح التتار لمدن خوارزم وما يتعرض له الشعوب الخوارزمية من مذابح ومجارر يشيب لها الرضع.

أمام الأنباء التى كانت تتردد أمام جلال الدين كثيرا ما كان يقسم بأغلظ الإيمان بأنه سوف يثأر لشهداء المسلمين الذين سقطوا ضحايا الظلم المغولى وإهمال والده الذى انصرف هاربا غير عابئ بما جرى لشعوب بلاده التى تحملت سنوات حكمه الطويلة.

أثناء فترة الإعداد وتجهيز الجيش الذى يقوده الأمير جلال الدين انضم الملك التركى «سيف الدين بغراق» إلى جيش جلال الدين حيث كان معه نحو ثلاثين ألفا من الجنود ثم سرعان ما انضم (ملك خان) أمير مدينة هراة الذى كان هاربا قبل احتدام معركة مدنية الباسلة مع التتار وقد كان قائدا لنحو عشرة آلاف جندى.

لم تقف الأمــور عند هذا الحـد بل انضم أكـثر من سـتين ألفـا من جنود دولة خوارزم الذين تفـرقت بهم السبل أمام طوفان التـتار واجتمـعوا جميعـا عند جلال الدين ينشدون الثآر لأبائهم وأخوانهم وأبنائهم من التتار.

وهكذا أصبح جـيش جلال الدين كبيـرا وضخمـا ويتضور جوعـا لنهش جثث العدو الغاشم.

وتقدم جلال الدين قوات جيشه واتجه به إلى إحدى المناطق الجبلية الشاهقة لملاقاة جيش التتـار الذى أقبل وهو يصرخ صرخته المفـزعة هو هوهوووووه وفى منطقة تسمى (بلق) قريبة من مـدينة غزنة التقى الجيشان فى معركة مـتكافئة أبلى المسلمون خلالها بلاء حـسنا وقاتلوا وناضلوا واستبسلوا وهم يدركون أن هذه آخـر معاقلهم وبسقوطها سوف تسقط خوارزم إلى الأبد وأن التتار ما هم إلا بشر خلقهم الله من طين لازب وأن النصر من عند الله لمن آمن واتقى وأخذ بأسـبابه لم يكن المسلمون طوال معاركـهم التى خاضوها قسراً ضـد التتار يأخذون بأسبـاب النصر أو يقاتلون بجدية كما يقاتل التتار الذين برعوا فـى التخطيط والتدبير والتنفيذ فكانت لهم الغلبة والنصر.

لكن. . . بعد أن قام جلال الدين بتجهـيز الجيوش وإعدها اعداداً رائعاً وزودها بأحـدث الأسلحة والمعـدات وعمل جـاهدا على توفيـر المؤن ووضع الخطط التى تتناسب مع ميدان المعركة وقـوة التتار والمناخ البيئى هل انتصرت جيـوش التتار كما اعتـادت هى على ذلك أم أن النصر كـان للمسلمـين الذين أخذوا للـمرة الأولى طوال مواجهتم مع التتار بأسباب النصر والغلبة؟!

بالطبع كان النصـر المبين حليفا لقوات جـلال الدين وقد كان نصرا ثمـينا وغاليا وساحقا ولد فى رحم الهزائم والنكبات والمذابح ومخاض وآلام عسيرة فكان نصرا

عزيزا على المسلمين ومهينا للتتار الذين أسكرتهم نشوة الانتصار فأعماهم الغرور عن قوة جيش جلال الدين وما أحدثه من تكتيكات ومناورات وخدع أعادت لهم كرامتهم وهيبتهم.

وأثناء تلك المعركة أدرك التتار أن الغلبة باتت للمسلمين وأن الهروب والانسحاب من ميدان المعركة يتسم بقدر كبير من الحكمة والعقلانية حيث إن العناد والمكابرة قد توقع بالجيش إلى هوة سحيقة ربما تقضى عليه وتبيده ومن ثم رأى قادة التتار أن الانسحاب هو الطرح الملائم والمناسب فى هذه المعركة الحرجة التى حسمها المسلمون لأنفسهم لتكون لهم الغلبة لأول مرة منذ أن اجتاحوا دولة خوارزم.

* * *

ما من شك أن هذه المعركة التى انتصر فيها المسلمون قد ألقت بظلال كثيبة ومريبة على جيش التتار الذى منى بهزيمة ثقيلة ومفجعة وأضاءت بصيص أمل بعد أن عشش اليأس واستفحل وتمدد وتوحش وانتشرت كهفوف الظلام وطال بهيم الليل الدامس كان الأمل قد بدا شامخا كالمارد يشد من أزر المسلمين حتى أن جنود المسلمين الذين أقاموا الأفراح وتعالت ضحكاتهم وأناشيدهم ونكاتهم بعد أن ظلت حبيسة فى الصدور ناشدوا الأمير جلال الدين أن يتعجل قتال جيش التتار وملاقاته مرة أخرى لحسم الأمر وطردهم من الدولة التى اندثر عرشها وأذل التتار أهلها.

ولأن جلال الدين قد كان يترقب على جمرات من لهب هذا اليوم الذى سيثأر فيه لأسرته التى تشردت وملك والده الذى تبدد ودم شعبه الذى تدفق.

وفى مدينة كابول الأفغانية كان اللقاء العاصف بين الفريقين ودارت معركة حامية الوطيس بين التتار والمسلمين وبدأت كفة الانتصار تميل وترجح لصالح المسلمين حيث سقط عشرات الآلاف من جند المغول فضلا عن جرحاهم وأسراهم.

وكتب الله النصر مرة أخرى لجند المسلمين الذين طالت أعناقهم عنان السماء فيما عاش التتار وفى طليعتهم جنكيز خان لحظات عصيبة قطعت عليهم حبال البهجة والسعادة التى اعتادوا على الرقص عليها طوال المعارك السابقة حتى قضى الله أمراً كان مفعولاً.

* * *

وهكذا استرد المسلمون عافيتهم وصلب عودهم واشتد بعد أن نضج واستوى وباتت لهم الغلبة بعد أن كثرت الهزائم وتوالت عليهم النكبات.

لكن ترى هل استمر المسلمون على ذلك أم أنهم قد تاقوا إلى زمن الهوان والخزى والعار؟!

واقع الحال أن المسلمين فى خوارزم قد استأثروا على أنفسهم أن يظل النصر حليفهم وكأن الهزائم والخسائر قد طابت لهم وطابوا لها فتاقت لهم واشتاقوا لها لتختفى وتتسرب من بين أياديهم أسباب النصر وتتجلى لديهم عوامل الضعف والهزيمة التى باتت إحدى أهم سماتهم ومظاهرهم.

ولعلك تتساءل ما الذى جرى حتى يطل عليهم وجه الهزيمة ويولى النصر أدباره بعيدا عنهم فيفر مأخوذا مذهولا مفروسا مما يصنعون؟

الحقيقة أن جيش خوارزم الوليد الذى كاد يسترد هيبته وكرامته وأمجاده وانتصاراته عاد بخفى حنين يجر أذيال الخيبة ويقع فريسة الطمع والجشع الذى استقر فى النفوس لا يبارحها أعنى بالجشع والطمع تكالب وتصادم جند المسلمين على

جمع الغنائم والاستيلاء عليها بالطبع أدى هذا الأمر الطارئ والمقرر إلى اندلاع الخلافات العنيفة بن فرق الجيش حيث رأت كل فرقة الحق فى الاستحواذ على أغلب الغنائم وراح كل طرف يتفاخر بدوره ويتباهى بما قدمه من تضحيات وكأنهم كانوا يحاربون من أجل الحصول على تلك الغنائم.

هل توقف الأمر الناجم عن تلك النفوس التى اجتاحها الجشع واقتصرت الخلافات على التراشق بالألفاظ والتنابز بالألقاب أم أن فى الأمر ما لا يخطر على بال العدو قبل الصديق؟!

طبعا ولعل ذلك يبرهن على أن هذه الدولة كانت تستحق ما أنزله الله عليها من عقاب وعذاب حيث راحة المعارك العسكرية تتفاقم بين كافة الجيوش فى صراع عجيب ومستغرب لهؤلاء البلهاء الذين أعمتهم الدنيا عما يحاك لهم من عدو غادر مترتب لقد أججت نار المعارك بين الفرق الطامعة المتناحرة وسالت دماء ودموع وسقط قتلى وجرحى وأسرى من كافة الفرق حتى ظن من لا يعرف أنها حرب ضروس بين المسلمين والتتار أما ما تمخضت عنه هذه المعارك المهينة فأنها جلبت الخزى والعار لمن انتسبوا بالأسم فقط إلى الإسلام فكانوا عليه وبالاً لا مناص من الإقرار به.

فمن جانبه أمر سيف الدين بغراق أمير جيش الترك بإعلان الحرب على جيش الأمير ملك خان أمير مدينة هراة وثالثهم جلال الدين بن الشاه محمد الشيطان الشيطان الذى أجاد ببراعة نسج خيوط الفتنة التى بددت معالم نصر المسلمين ويروى المؤرخون أن أحد الذين سقطوا قتلى فى هذه المعارك الأهلية كان شقيق الملك سيف الدين بغراق الأمر الذى أثار غضبه فهاج وماج وقرر سحب قوات جيشه وعودته إلى بلاده تاركا جلال الدين غارقا فى حيرته ومخاوفه بعد اتخاذه تلك الخطوة الخطيرة التى أضعفت الجيش وتقلصت على أثرها قدراته وكفاءته.

لكن هل يقف جنكيز خان مكتوف الأيدى أمام من أذلَّهُ وكسر شوكته وكاد يقضى عليه بعد أن ترامت لمسامعه أنباء الفتنة التى وقعت وبدت كالشوكة المغروسة فى صدر جلال الدين؟!

بالطبع لم يكن جنكيز خان أحمق أو ساذجا أو أبله بل كان قائدا من طراز نادر حيث يتصف بالذكاء والدهاء والعبقرية وقوة الإرادة ناهيك عن طغيانه وظلمه وعنفوانه وجبروته ومن ثم لم يدخر وسعا لانتهاز تلك الفرصة التى لاحت أمامه وقدمها له الملك سيف الدين بغراق على طبق من ماس وياقوت وزمرد إنها الفتنة التى فيها سقطوا كالذباب فما كان من جنكيز خان القناص سوى اصطيادهم وافتراسهم فى أثناء اشتعال تلك الفتنة انطلقت جحافل المغول يتقدمهم الخاقان جنكيز خان للقضاء على من تبقى من حروب الفتنة فاستقر الرعب فى نفوس جيش المسلمين الذين باغتهم جيوش التتار بقيادة ملكهم...

وحين تلقى جلال الدين نبأ التتار قرر فى التو سحب قواته والفرار بهم ناحية الجنوب تفاديا لتدمير قد يلحق بجيشه بعد أن تضاءل عدده بالانسحاب الذى وقع على يد الفرق التى تناحرت فيما بينها.

* * *

هروب جلال الدين

حين شرع جلال الدين بين السلطان محمد الخوارزمى فى الانسحاب والهرب على رأس جيشه عادت للأذهان لحظات الهروب المهين لوالده البادى شاه محمد واستبد اليأس بالمسلمين بعد أن تنفسوا الصعداء بعد حياة كانت مضطربة وكئيبة ومهينة ومفجعة.

عاد شبح الأب يطل بأيامه السوداء الغابرة وكأن ولده جلال الدين أصر على إحياء ذاكراه قولا وعملاً وأن يقتفى أثره براً به ووفاءاً له!!

نهايته. . . انطلق جلال الدين إلى منطقة الجنوب سبق وأن شرنا فتعقبته على منوال والده جيوش جنكيز خان للفتك به والإجهاز على جيشه.

عندما علم جلال أن طلائع جيش التتار على مرمى حجر منه أسرع إلى باكستان التى اخترق جميع مدنها وقراها واجتاز جبالها وتلالها حتى عبر حدودها وبلغ حافة شاطئ نهر السند وهو المانع المائى الذى عرقله انطلاقه وشل حركته حتى كان قد استبد به الغضب وكاد يفقد رشده كلما لاحت أمامه أشباح التتار.

لم يمض وقت طويل حتى باغتته جحافل التتار التى وجد نفسه أمامها وجها لوجه حيث لم يعد هناك مفر من خوض غمار معركة ثالثة معهم حيث إن النهر قد تعذر عبوره وها هو جنكيز خان بلحيته الحمراء وجيشه بصرخاته التى تخلع الأفئدة من الصدور هوووووه يتربص به.

إذن دقت ساعة الصفر وجحظت العيون وارتفعت السيوف فى الهواء الطلق وكاد صهيل الخيول يصم الآذان.

اشتعلت نيران المعركة بين الجانبين غـاصت حوافر الخيل فى بحور الدم وتبعثرت الجثث فى كل مكان وتعالت الصـيحات وعمت الصرخات وكـان نهر السند شاهداً على تلك المعركة الرهيـبة التى ظلت نحو ثلاثة أيام سقط فيهـا الآلاف من الفريقين وعاقت جـثث الشهداء المسلمـين وقتلى المغـول المعركة التى توقـفت قسراً وجـيزاً لإخلاء ساحة المعركة من الجثامين والجرحى.

كانت عمليات إخلاء ميدان المعركة فـرصة ذهبية لكلا الفريقين لالتقاط الأنفاس والارتماء بعض الوقت فى استراحة المحارب وإعادة رسم الخطط وفق أوضاع الميدان ومستجداته وأوراقه التى فوجئ بها الطرفان أثناء المعركة.

وبعد أن استعاد كل فـريق عافيته وطاقته وقوته عاد كليهـما لميدان المعركة لوضع كلمة النهاية على هذا الصـراع المرير الذى كاد يقضى عليهما معـا من فرط سقوط القتلى الذين جاوزت أعدادهم مئات الألاف وكـان الأمير ملك خان ضمن شهداء تلك المعـركة الفـاصلة والحاسـمة ومع احتـدام المعركـة أدرك جلال الدين بذكـائه وخبـراته أن قواته على وشك الانهـيار وأن النصر آت لا مـحالة لصالح التـتار وأن مظاهر الهزيمة تجلت للقاحس والدانى وأن الهرب أضحى هو طوق النجاة .

التقط جلال الدين إحدى السفن الراسيـة وتسلل إليها فى دياجير الظلام الحالك وقد اصطحب معه أعز معارفـه وأقاربه لعله ينجو بهم تاركا وراءه جيشا على وشك الإبادة الجماعية وكيف سيصمد ويقاوم وقد هرب القائد والرمز والزعيم.

وما من شك أن الأمر قد حسـمه التتار لصالح مشروعهم الكبيـر كما أن الأمير جلال الدين بدوره قد حسمه أيضا لصالحه بضع سنين راح يقضيها مزعوراً مسـكونا بالخوف والهلع ومن شابه أباه ما ظلم!!

انتهت الحرب وسقط جيش المسلمين ينشد العفو والصفح من ذى اللحية الحمراء الذى عاد أدراجه إلى المدن التى قاومت وحاربت قـواته تأبى الاستسلام لكى يصب عليها جام غضبه عقابا لها على ما اقترفته فى حق جيشه الذى لا ينبغى مقاومته أو محاربته وراح يقطع الرقاب ويغتصب النساء ويخطف الأطفال ويحرق الديار فتهدمت المدن وانهارت المساجد حتى بدت وكأنه زلزال قد ضربها وانتقم منها أو حريقا هائلا قد شب فيها . .

وهكذا كانت مأساة بلاد الإسلام على يد التتار الذين اشتهروا زمن ظهورهم وشروق شمس القوة والقسوة والوحشية التى يندر أن يرى الوجود لها مثيلا حتى أن الإمام العلامة ابن الأثير قد علق على المدابح التى ارتكبها هؤلاء الطغاة فى بلاد المسلمين قائلاً بالنص لقد بقيت عدة سنين معرضا عن ذكرنا هذه الحادثة استعظاما لها، كارها لذكرها فأنا أقدم إليه رجلا وأؤخر أخرى فمن الذى يسهل عليه أن يكتب بغى الإسلام والمسلمين؟ ومن الذى يهون عليه ذكر ذلك؟ فياليت أمى لم تلدنى وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا إلا أنه حثنى جماعة من الأصدقاء على تسطيرها وأنا متوقف ثم رأيت أن ترك ذلك لا يجدى نفعا فنقول: هذا الفصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى التى عقمت الأيام والليالى عن مثلها . . عمت الخلائق وخصت المسلمين فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلَ بمثلها لكان صادقا فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث ما فعله بختنصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس وما بيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف بيت المقدس؟!!

فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بنى إسرائيل ولعل الخلق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه وهؤلاء لم يبقوا على أحد بل قتلوا النساء والرجال والأطفال وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم لهذه الحادثة التى استطار شررها وعم ضررها وسارت فى البلاد كالسحاب استدبرته الريح.

وفى كتابة القيم استعرض الإمام ابن كثير بعضاً من صور همجية التتار ووحشيتهم وما اقترفوه فى حق بلاد المسلمين وقد قال فى معرض رؤيته لما جرى من أهوال.

فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله - عز وجل - وأسروا الذرية والنساء وفعلوا مع النساء الفواحش فى حضرة أهلهن فمن المسلمين من قاتل دون حريمه حتى قتل ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال ثم أشعلت التتار النار فى دور بخلارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها.

وهذه نماذج من آراء عبرت عن دهشة وذهول إمامين كبيرين روعتهم مذابح وأهوال ارتكبها التتار فى بلاد المسلمين التى كانت آمنة مسالمة لم تكن تعتزم شن هجمات أو دفع حملات على بلاد التتار فأبادتها يد الغدر فى ليل طويل ظل عقوداً طويلة لا ينتهى.

* * *

الفصل التاسع
احتلال بلاد فارس

بالطبع كانت بغداد درة العالم الإسلامى وتاجه الذى يطمع فيه ذو اللحية الحمراء حتى يتسيد العالم فيتعاظم شأنه وتحلق راياته فى آفاق الدنيا بعد أن دانت له آسيا ومن ثم لن تستعصى عليه أفريقيا إن هو فكر ودبر وقرر وشمر عن ساعديه.

فى عام ٦١٨ هجرية كانت أحوال بلاد المسلمين كما كانت فى عامى ٦١٦ و٦١٧ تمضى بأقصى عجلاتها من سئ إلى أسوأ ما يكون منذ أن دنست أراضيها جحافل التتار فى هذا العام راح جنكيز خان يأمر ابنه قائد جيشه العرمرم لدك وتدمير مدينة مداغة إحدى مدن إقليم أذربيجان وقد سقطت المدينة بعد مقاومة باسلة أبلى خلالها أهالى المدينة بلاءً حسناً ولم يدخروا جهدا فى إلحاق الأذى بالتتار ومحاولة صد عدوانهم الغاشم يبد أن التتار كانوا الأكثر قوة والأوفر عددا والأمهر قتلا وسفكا للدماء.

من هنا سقطت مراغة فى براثن التتار وراحت كمن سبقها من بلاد المسلمين لرفع راية الاستسلام بعد أن سقط الآلاف من رجالهم وشبابهم ولم يتبقَّ بينهم سوى النساء والشيوخ والأطفال والفتيات حيث وقعوا فريسة بين أنياب وحش كاسر لاهم له سوى سلخ ضحاياه بعد ذبحهم وإسالة دمائهم.

وهكذا انضمت مدينة مراغة فى عام ٦١٨ هجرية إلى الطوق المغولى لتصبح إحدى مدن جنكيز خان ضمن ممتلكاته ومستعمراته وقواعد جيشه.

وبعد أن طابت الأحوال لدى التتار واستقرت أوضاعهم وهدأت نفوسهم راح قادتهم بإيعاز من السفاح جنكيز خان يضعون الخطط الرامية لاجتياح شمال العراق

لعل ذلك يكون دافعا للتغلغل إلى الدولة العباسية فى محاولة لتفكيكها بعد أن تقطعت أوصال الدولة الخوارزمية التى كانت مترامية الأطراف تتواصل حدودها مع جميع قارات العالم.

والواقع أن جنكيز خان الذى كان يحسب للدولة الخوارزمية ألف حساب قد أدهشه انهيارها وتحللها وسقوطها على النحو الذى أوردناه قد استخف بالدولة العباسية التى تلمع فى عينيه ويحلم باصطيادها لولا نفر من قادته يحذرون من مغبة الصدام مع الدولة العباسية مقر الخلافة الإسلامية ومركز المسلمين لكن من جانبه اعتزم جنكيز خان دك حصون مدينة أربيل لغرض فى نفسه قد يكون استفزاز الخليفة العباسى الناصر لدين الله والوقوف على حقيقة قوة الدولة العباسية التى كان يخشاها جنكيز خان لتاريخها العريق وأمجادها التى لا يغفل عنها أحد.

المهم على عكس ما كان متوقعا بلغ سكان أربيل أمر قدوم التتار فتحللت أجسادهم التى امتلكها الفزع حيث كانت سيرة التتار قد عمت الأرجاء وسادت الأنحاء وانتشر الخبر كالنار فى الهشيم واستدعى الخليفة رجاله ومعاونيه للتباحث فى شأن الخطر الداهم الذى أوشك على الوصول إلى بلادهم.

وانتهى الاجتماع العاصف الذى عقده الخليفة بصدور نداء عاجل إلى رجال الدولة العباسية لحمل السلاح ومحاربة التتار.

واستجاب نحو ألف رجل فقط من أبناء الدولة العباسية لنداء الخليفة فقد كان الرعب المغولى قد استولى عليهم ومن ثم راح الجميع يبحث عن ثقب إبرة للهروب منه قبل أن يأتى الطوفان ويجتاحهم الإعصار الرهيب وبات شعار انج سعد فقد هلك سعيد هو الشعار الأثير لدى جميع أبناء الخلافة العباسية ولما لم يجد الخليفة بداً من ملاقاة جيش التتار الذى كان قد اقترب من أربيل قاصداً بغداد كان الله قد

أسكن الخوف قلوب التتار الذين شاهدوا القـائد المسلم الشجاع (مظفر الدين) يقود ألف رجل فـقط من حين أن الخـلافـة العبـاسيـة تضم الملايين من أشـد رجالهـا وأشجعهم فظنوا أنهم على وشك السقوط فى شباك الدولة العباسية.

كان التتار قد روادتهم الظنون أن ظهور نحو ألف رجل فقط هو مخطط جهنمى لا ينبغى الاسـتسلام له بل لا مفر من الـتراجع والانسحاب قبل أن يـخرج ملايين الرجال العـباسين من مخـابئهم وخنادقهم وقـلاعهم ومن ثم آثر التتار الانسـحاب خوفا من مـغبة الوقوع فى براثن آل عـباس وما يمكن أن تتعرض له حـملتهم من إبادة أو هكذا روادتهم الظنون.

وهكذا كتب الله السـلامة للعراق والصـحة للخلافة العـباسيـة التى كانت على وشك الانهـيار وعلى الرغم من هذا الإنذاز الذى تسلـمه الخليـفة العبـاسى ولأن الدولة المريضة ظلت على حالها لا تتقدم قيد أنملة إلى الأمام حيث كان الخليفة ومن معه قد شغلتهم الدنيا وفتنتهم بسحرها.

لكن هل سيظل العـراق الذى نجا بالأمس واقفا على قدمـيه يثير الرعب مـتوكأ على عصا الماضـى وأمجاده وانتصاراته وبطولاته أم أن سـاعة خلاصة وانهـياره قد أوشكت على الاقتـراب وأنه لم يعد يتبـقى من الزمن سوى ساعـة؟ على أية حال سنرصد سيرة التـتار ومسيرتهم الدامية فى بلاد المسلمـين وما آلت إليه تلك الحملة الحمراء التى عاثت فسادا وظلما وجوراً.

* * *

احتلال المدن الفارسية

بعد أن اضطر جنكيز خـان إلى سحب قواته من شمال العراق خـوفا من جيش الخلافة العـباسية ذلك الوهم الكبيـر قرر بعدها الالتفات إلى بلاد فـارس الملاصقة لحدود الدولة العباسيـة فى بغداد لبسط نفوذه وهيمنته عليها وفـى البدء كانت مدينتا همدان وأودويل الهدف الذى وضـعه جنكيز خان نصب عـينيه على أمل الوصول عبر هاتين المدينتين إلى كافة المدن الفارسية.

من هنا وعلى هذا النحـو تقدمت جـيوش التـتار التى فـرضت حصـارها على همدان التى سرعـان ما سقطت بعد مـعركة عنيفة راح خـلالها الآلاف من رجال المدينة التى احترقت وأبيدت وأضحت من التاريخ صور الماضى لتنطلق بعدها الحملة إلى مدينة أردويـل التى باتت خرابا بعد الـدمار الشامل الذى لحـقهـا والحرائق التى أضرمت فى ديارها ومساجدها.

* * *

العودة إلى الوطن

فى أعقـاب السقوط المروع لمدينتى همـدان وأردويل أبصرت جيوش التـتار إلى كبرى المدن الفارسية وأشهرها وأعرقهـا وتدعى تبريز كان حاكم بتريز المجاهد الفقيه والإمام القـائد شمس الدين الطغرانى) الذى اعـتلى منبر الجامع الكبـير لحث الناس على الجهاد ضد التتار الذين فى طريقهم لتبريز.

على أثر خطبه الحماسية والنارية والجهادية اتحدت جموع أهالى المدينة على قلب رجل واحد لتحصين المدينة وتشييد أسوارها وأبراجها وسط خطب عصماء تتحدث عن الجهـاد والاستشهـاد وأناشيد تحض على التـضحية والبـذل والفداء والموت فى سبيل الله.

واستـعدت المدينة لملاقـاة العدو لكيـد نحره وكسـر عنقه دفـاعا عن مديـنتهم وأسـرهم وثأرا ممن تدفـقت دمـاؤهم وتقطعت أوصـالهم كان أهـالى المدينة الذين تمرسوا واحتشدوا وتدربوا يرقبون خطى حوافر خيل التتار بيد أن جيش التتار قد آثر عدم المواجهة مع تلك المدينة التى أبدت عزمها وخلصت نواياها فى مواجهته فكتب الله لها النجاة من الوقـوع فى مصيدة التتار الذين ولوا الأدبار وانطلقـوا نحو مدينة أخرى لعلهم يـجتاحـونها دون مشـقة أو عناء كمـا كان العهـد بهم طوال السنوات الفائتة.

وكانت مدينة بيلقـان التى أصابها دور الظلم والجور والعذاب حيث اسـتخف بها التتار واجتـاحوها فى رائعة النهار فجثت على ركبـتيها صاغرة مستـسلمة مالها من قرار تنشد السلام وتطلب الأمن والأمان.

ولكن منذ متى صـدق التتار وأخلصـوا وأوفوا بعهودهـم حتى يأمن لهم أهالى بيلقان الذين استـولى عليهم الخوف ودفعـهم إلى أفران التتار كـوقود وحطب حتى

نشفى صدور التتار وهكذا سقطت بيلقان فى شهر رمضان الذى كان ينبغى أن يكون دافعا وداعيا لنيل الشهادة وبذل العطاء لكنهم آثروا الحياة دونهما فعاثت جيوش التتار فسادا وإفسادا وتدميرا وخرابا وسلبا واغتصابا من كان يجرؤ على صد جحافلهم وشل حركتهم وكيف السبيل إلى ذلك إذا كانت القلوب قد اعتمرت بالخوف وفاض منها الرعب.

وانطلق الزحف المغولى كالنار المستعرة لتشعل الحرائق فى كل ربوع بلاد فارس حيث وقع اختيار الحملة على مدينة كنجة بوصفها أبرز المدن الفارسية وأهمها وأشهرها وأقواها على وجه الاطلاق.

أما أهالى مدينة كنجة فقد أدرك زعماؤهم حقيقة ما يجرى من حولهم وراح حاكمها يعتلى منبر جامعها الكبير وأفاض فى شرح الموقف أمام الجموع الغضيرة التى أرهفت السمع للوقوف على حقيقة الأمر.

راح حاكم المدينة يستعرض الصورة لمن احتشد أمامه مؤكداً أن أهالى بيلقان الذين اجتاحت مدينتهم جيوش التتار ذبحتهم جيوش التتار كالقطيع رغم أنهم لوحوا لهم برايات الاستسلام وأضرموا النيران فى ربوع مدينتهم حتى تحولت إلى قطعة من اللهب وسرعان ما روى القائد العبقرى والخطيب القوى مآثر وتداعيات الجهاد والفداء والنضال الذى عقد أهالى تبريز الباسلة عزمهم على التمسك بفضيلة الجهاد أو الاستشهاد وكيف ارتعدت فرائص العدو حين أبصر عزيمة الرجال.

لم يستطع الرجل العبقرى إنهاء خطبته فقد قاطعته الجماهير الغفيرة التى احتشدت داخل الجامع وخارجه وهى تهلل وتكبر وتصرخ بأعلى صوتها الموت للتتار.. الموت للسفاح.

وهكذا لم تعد صرخة التتار المعهودة هووووه هى فقط التى تقذف الرعب فى القلوب الراجفة الخائفة بل هناك ما هو أشد منها وأفظع إذا ما انطلقت صادقة من مكنونات القلوب ويبقى السؤال. ما هى المحصلة النهائية؟! ماذا صنع التتار إزاء مدينة كنجة؟ هل أغاروا عليها؟ هل اجتاحوها وعاثوا فيها فسادا أم ماذا؟ .

لقد قرر المغول التراجع والتقهقر والانسحاب لتبقى كنجة شامخة حرة مستقلة أبية طاهرة لا تدنسها نعال أحذية الطغاة السفاحين لتبقى معصومة من القهر والقمع والتنكيل عصية على من لا قلب لهم ولا يتدرعون فى سفك الدماء وإذلال الرجال واغتصاب النساء.

ولو أن بلاد المسلمين فى ذلك الزمان قد حذت حذو بلاد فارس ومن قبلهم بعض المدن التى أبت الخضوع والاستسلام فى إقليم خوارزم لأطلق التتار حملتهم شطر بلادهم وعادوا من حيث قادتهم أقدامهم يتضرعون إلى بارئهم للنجاة ومن أشباح الموت التى تلاحقهم أينما ذهبوا.

غير أن الحقيقة التى أدمت القلوب أن أعداداً هائلة من بلاد المسلمين قد روعتها قوة التتار وظنوا أنهم قوم لا يقهرون فاستسلموا لهم خائفين فماتوا أذلة صاغرين.

على أية حال انطلقت جيوش التتار نحو شمال أذربيجان لاحتلال أراضيه الواقعة على ساحل بحر قزوين من الجهة الغربية وقد عاود التتار بداخل تلك البلدان المسلمة هوايتهم فى السلب والنهب والذبح وانتهاك الأعراض بعد أن استحلوا ما بها وما عليها.

وا حسرتاه سقطت قلاع كان أجدر بها الجهاد والفداء ضد الغزاة الذين أبادوها وأحرقوها بعد أن استسلم أهلها وظنوا أنه الأمان.

وهكذا باتت مدينتى داغستان والشيشان رغم ما اشتهرت به كلاهما من بأس وصلابة وشجاعة ضمن ممالك التتار وتحت سنابك خيلهم ولكن هل توقفت الحملة عند هذه المدن أم مضت فى طريقها لتدمير وتخريب وإحراق كافة المدن الإسلامية؟!

بالطبع انطلقت حملة التتار صوب ناحية الشمال حتى بلغ بهم الأمر أن حطت رحالهم عند حوض نهر الفولجا الروسى ومن ثم خضعت مناطق ومدن الجنوب الغربى الروسية لجيوش التتار التى لم تسلم من عائلة جنود جنكيز خان حيث المجازر الوحشية التى ارتكبوها في حق تلك البلدان المسيحية حيث لم يكن جنكيز خان يرى أن للأديان حرمتها وقدسيتها. . ليلحق مسيحى جنوب روسيا الغربى بمن هلك من المسلمين من قبل خلال الحملة الغاشمة. .

على أية حال ارتوت حجافل التتار وقتلت عطشها فانتفخت أوداجها وتضخمت عضلاتها من دماء الضحايا فى بلاد المسلمين الذى ابتلاهم الله بملوك وأمراء دهمت عظامهم واشتعلت الرؤوس شيبا بعد حياة حافلة بالنضال فى حانات السهر والمجون والخلاعة كما أرسل عليهم رجال غلاظ أشداء تعاونوا وتكاثروا فلم تفشل ريحهم ولم تكن هباء منثوراً.

وهكذا دانت معظم أقاليم آسيا وأجزاء من أوربا لسلطان التتار وملكهم الرعديد جنكيز خان لتمتد حدود مملكته الوليدة من بلاد فارس وخوارزم إلى شرق الصين والجنوب الغربى لروسيا والبقية تأتى فى الطريق الذى تسلكه حجافل جيش التتار بيد أن التتار قد تعرضوا لهزيمة قاسية ومروعة حين تصدت لهم إحدى الطوائف الروسية. والحاصل أن هذه الطائفة قد ساء أهلها وأتباعها وحكامها الأهوال التى أرتكبها جند التتار ومن ثم اعترفت تلك الطائفة على مثل حركة التتار ووقف

مسيرتهم التى انطلقت تشق القرى والمدن الروسية كما تشق السكين قالب الزبد دون جهد أو عناء.

ودارت معركة عظيمة بين الفريقين فى منطقة أرمينيا التى تناثرت بها جثث القتلى من الفريقين بيد أن التتار قد اعتراهم الذهول من صلابة الطائفة الروسية المسيحية الجسورة التى استبسلت وناضلت لا تأبه بالتتار ولا تعيرهم أدنى قيمة حتى كانت يدهم العليا ويد التتار التي باتت قصيرة كسيرة مغلولة مشلولة هي السفلى ليلقى جزاء ما يصنعون.

كانت الهزيمة ثقيلة ثقل الجبال الراسية حتى أن التتار قد فقدوا أعداداً غفيرة وهائلة حتى كاد عقل ابن جنكيز خان يطير من رأسه.

والواقع أن هزيمة هؤلاء الهمج قد جاءت فى الوقت المناسب حين كان التتار فى طريقهم المفروش بدماء الضحايا والمرصوف بعظامهم وجماجمهم إلى جميع أنحاء روسيا ومن يبسط جناحية على ربوعها فقد دانت له نصف الكرة الأرضية وربما أكثر من ذلك دون مبالغة.

المهم فكانت تلك الهزيمة حائطا منيعا وحجر عثرة عرقل مسيرتهم بل إن شئت الدقة فقد ضعفت قوتهم وتراخت قبضتهم فى المناطق الروسية التى كانوا قد أخضعوها لسلطانهم وقد شهدت حامية التتار حركات تمرد وعصيان وخروج جماعى مدفوعا باستخفاف هذه المناطق بالتتار بعد أن كانت مسكونة بالرعب والفزع.

وهكذا فقدت جيوش التتار سيطرتها وتلاشى نفوذها وتبخرت هيبتها فى مدن روسيا وجورجيا والشيشان وداغستان وأذربيجان ومناطق شمال إيران.

إذن أصبحت تلك المناطق وبالتحديد شمال إيران تشكو فراغا هائلا فى إدارة شئونها حيث أدى الخروج على التتار ظهور قوة متصارعة فيما بينها يحاول الجميع خلالها الإمساك بزمام الأمور مادام التتار قد ذهبوا بغير رجعة.

وأمام حالة الفلتان الأمنى والفوضى التى عمت أرجاء الشمال الإيرانى وسادت ربوعه ظهر الأميرغياث الدين بن محمد بن خوارزم شقيق جلال الدين الذى يعتصم فى بلاد الهند هربا من عيون التتار.

الشاهد أن الأمير غياث الدين تنبه بذكائه لهذا الفراغ الموحش وما يمكن أن يترتب عليه إذا دانت تلك المناطق لنفوذه لاسيما إذا تمكن من مد نفوذه إلى مناطق الجنوب التى لم تكن جحافل التتار قد هاجمتها قبل ومعها المناطق الغربية لإيران.

إذن قويت شركة غياث الدين الذى يتطلع إلى استعادة ملك ونفوذه وإرث عائلته المسلوب والمنهوب والأسير فى مصيدة التتار.

من هنا أضحى غياث الدين خطرا داهما على جيوش التتار التى أصبحت تشكو ضعفا واضمحلالاً وانقشاعا وانكماشا فى مناطق روسيا وتخشى من تعاظم قوة غياث الدين إذا توحدت وتعاونت مع جيش الدولة العباسية وما يمكن أن ينعكس عليها إذا أطبقت عليها القوى المختلفة سواء فى بغداد ومناطق نفوذ غياث الدين والمناطق التمردة فى الجنوب الغربى لروسيا.

لكن كما كان معهودا بمن ابتلاهم الله حكاما للمسلمين أوعز الخليفة العباسى الناصر لدين الله (وإن لم يكن له نصيب ولو مثقال خردلة من اسمه) أوعز إلى أحد رجاله وأصدقائه المقربين منه ويدعى (إيغان طائسى) وهو شقيق والدة الأمير غياث الدين لكي يقود فرقة عسكرية تطيح به حتى لا يعود مجد آبائه وأجداده مرة أخرى.

ولأن خال الأميـر كان بدوره طامعا مـتطلعا إلى عرش آل خوارزم فـقد اضطر لقبول الفكرة مادام الخليفة العباسى بكل ما يملك من قوة سوف يؤزاره ويسانده.

وفى غضـون أيام تمكن الخال الخـائن من حشـد العديد من الفـرق التى تمردت على الأمير غـياث الدين ودارت معركة بين المسلمين الذين أداروا ظهـورهم للتتار وانكفأوا على أنفسهم فى صراع دموى رهيب نكص فيه الخال إيغان طائس هو ومن معه علـى أعقابهم وعاد بصرهـم خاسئا وهو حسـير بعد أن منيت قواتهم بـهزيمة ساحقة ماحقة.

لم تقتصر التـداعيات عند تلك المعركة التى انتصر فـيها على خاله ومن ولاه بل خرج عليه أحد الأمراء يدعى «سـعد الدين بن دكلا» الذى كان هو الآخر يرى أنه الأحق فى هذا الملك الذى يهـيمن عليه غـياث الدين ودارت الدائرة بينـهما عـاما كاملاً!!

عاما كاملاً فى صراع لا ينتهى ودماء غزيرة متدفقة دون وازع أو ضمير بين أبناء المسلمـين للنزاع على عـرش قـواعـده من ورق أعمـدته من زجـاج وتاجـه من خشب!!!

نهايتـه. . . فقد أسـدل الستار على خـشبه مـسرح هذا الصراع باتفـاق يقضى بتـقسـيم البـلاد بين الرجلين وناهيك عن المخـاطر الناجـمة من هذا النزاع المقـزز وانعكاساته على الشعوب الإسلامية التى تئن وتتعذب تحت وطأة الوحشية التتارية.

من بين ثنايا هذه الأحـداث ومن جحورها وأوكـارها عاد الأميـر جلال الدين شقيق الأمير غياث الدين!!

* * *

عاد والعود غير أحمد

عاد جـلال الدين بعد هروب دام خمس سنوات ظل خلالها يتحسس سيفه ويرتاب في نفسه خشية وقوعه خلسة فى أيدى جنكيز خان.

لكن بأى وجه عاد جلال الدين بعد أن فر هاربا لا يكترث بجيشه وشعبه الذى أذلته جيوش التتار؟!

هؤلاء يعودون بوجه مصنوع من حديد حتى يخيل للرائى أنه من جلد سميك فمثلهم لا يبالون حيث إن أطماعهم وآمالهم وأحلامهم يبتغى أن تتحقق على جماجم وجثامين وعظام الذين سحقتهم سيوف التتار فى التلال والسهول والهضاب والجبال.

دعك من أسمائهم ولغتهم وأوصافهم ولا تحسبن أنها على مسمى فلا تأبه بمن أطلق عليه أبوه جلال الدين فيما كانت دولة الإسلام فقدت هيبتها وعزتها ولا يغرنك من دعته أمه بأنه غياث الدين وقد غاص فى أوحال الحروب الأهلية لا يغيث أحداً بل ظل عاما كاملا يعيث فسادا فى حين من أسماه والده سعد الدين الذى قاد حركة التمرد والعصيان قد أذرفت الدموع ونزفت الدماء على يديه فلم تسعد به الديار الإسلامية بعد أن توشحت بالسواد فداء لأحلامه!!

أما من أطلق على نفسه الناصر لدين الله وتبوأ عرش الخلافة فحدث عنه ولا حرج حيث إنه عاش غارقا فى ملذاته سابحا بحر نزواته وسهراته ورحلاته ولم ينتصر أبدا لدين الله ولم يشأ أن يسعى لذلك بل كان الهادم لديار الإسلام بوشاياته ومؤامراته ودسائسه التى ظل ينسج خيوطها لإذكاء نيران الفتنة بين المسلمين حفاظا على عرشه نعود والعود غير أحمد لجلال الدين وكيف عاد وليته ما كان قد عاد.

بادئ ذى بدء استطاع صاحبنا أن يجتاز نهر السند على متن إحدى السفن التى رست على شاطئ ساحل إقليم كرمان ثم سرعان ما انطلق من خلالها فى جنح الليل إلى منطقة جنوب إيران وتمكن حال وصوله من دعوة أتباعه وأنصاره وحاشيته الذين التمسوا له الأعذار وساقوا لخصومه الذرائع لتبرير هروبه المشين كان الأمير جلال الدين طليق اللسان حلو البيان عذب الحديث ومن ثم كان يملك القدرة والبلاغة على تكريس أكاذيبه وكأنها حقائق لا تأتيها الباطل أبداً الأمر الذى مكنه من استعادة حشد هائل أنصاره الذين صدقوه وعادوا لسابق عهدهم يوقرونه ويبجلونه!!

لكن غياث الدين قد تميز غيظا من عودة شقيقه الأمير جلال الدين وما يمكن أن يترتب على هذه العودة المفاجئة وما سينجم عنها حيث إنَّ غياث الدين كان قد أفنى السنوات المنصرمة وخاض حروبا شرسة وواجه معارك حامية وتصدى للفتن والمكائد وأهدر دماء غزيرة وعزيزة وأنفق من ماله وجهده من أجل بسط نفوذه.

كان غياث الدين يتساءل فى نفسه عن التحديات التى تتكاثر عليه سواء من التتار أو من الخليفة العباسى المتربص له أو حتى خاله الذى كاد يطيحه من العرش أو من سعد الدين الذى قاسمه البلاد التى اغتنمها.

لم يعد الأمر يحتمل عودة جلال الدين بأ طماعه وأحلامه وأمانيه وتطلعاته ومكائده ومؤامراته.

ولأن غياث الدين كان أعلم من غيره بما تخفيه نفس أخيه فقد صدق حدسه ولم يكن قد استغرب التئام شمل أخيه جلال الدين مع عدوه اللدود سعد الدين وعزمهما على محاربته وإسقاطه وتفتيت ملكه وصولجانه!!!

بدأت فصول المأساة الدامية التى يخجل من ذكرها رواة التاريخ ومؤرخوه من المسلمين لاسيما وأن هذا الأمر يبعث النفس على الأسى ويصيب القلب بالهم حتى يكاد الراوى يعض على نواجزه نادما على مطالعته لتلك الحقبة السوداء فى تاريخ الأمة الإسلامية وبالتحديد زمن الخلافة العباسية التى كانت ملء السمع والأبصار فى كافة الأقاليم والأمصار.

الشاهد.. أن الأمير جلال الدين نجح بدهائه وخبراته من إعادة بناء جيش كبير ترأسه وانطلق به إلى إقليم فارس فى حملة مكبرة يهدف من ورائها إلى كسر عظام شقيقه غيات الدين الذى تقهقرت قواته بفعل ضخامة الجملة التى بين صفوفها قوات عدوه سعد الدين إلى أن تمكن جلال الدين من فرض سيطرته على المناطق الجنوبية والشمالية من إقليم فارس ليجد نفسه على مرمى حجر من البصرة فراغت فى عينيه وسال لها لعابه الطامع الطامح المتلهف.

لم ينتظر جلال الدين طويلاً بل انطلق نحو مدينة البصرة إحدى أهم مدن دولة الخلافة العباسية فى محاولة جادة لاستفزازها وجرها إلى حرب مدمرة لها حتى يتخلص منها إلى الأبد ليتسع ملكه وتتمدد أطرافه ليعود المجد والنفوذ والجاه والسلطان.

كانت الدولة العباسية قد نخر السوس عظامها ولولا عصا الماضى المجيد التى تتوكأ عليها وتخيف بها الذئاب الجائعة لترنحت لكى تلفظ أنفاسها الأخيرة.

المهم أن جلال الدين فرض حصارا طويلا دام شهرين على مدينة البصرة التى استعصت عليه وعاندته وأجبرته على الرحيل اتقاء لشرها.. كانت الحصون التى شيدت داخل أسوار الدولة العباسية تتسم بالقوة والمتانة ولولاها لكانت الثغرة التى سينفذ منها جلال الدين نحو قلب الدولة العباسية ولكانت قد أضحت ضمن المناطق

الخاضعة لنفوذه وسلطانه لكن جلال الدين الذى تحركه أطماعه وأحلامه قرر أن يمضى على عجل ودون إبطاء إلى جهة الشمال وهو التحرك الذى أثار مخاوف العباسيون الذين نهضوا من معاقلهم وحاناتهم ومواخيرهم وتنبهو لما يراد لهم وقاموا بتشييد الحصون والأسوار والأبراج وتجهيز الجيش للمواجهة المرتقبة مع قوات جلال الدين بين ساعة وأخرى.

ومع تصاعد وتيرة الأحداث وخطورتها التى تهدد الخلافة العباسية أوعز بعض الدهاة من مستشارى السوء للخليفة العباسى بضرورة الاستعانة العاجلة بقوات التتار لدعم دولة الخلافة وحمايتها من جيش المسلمين!!!

أما موقف التتار فقد كان ترحيبا بالفكرة وإن كان مشوبا بالحذر حيث كان جنكيز خان يدرك سوء المخاطر التى تلتف حول عنق التتار إذا خلصت نوايا المسلمين وتوحدت.

كان جنكيز خان يخشى سحب قواته وجرها إلى مستنقع عميق قد يقضى على جحافله رغم أنه كان يترقب اللحظة المناسبة للانقضاض على قوات جلال الدين الذى عاد يؤرق نومه ويضج مضاجعه.

* * *

أما جلال الدين فلم يكن يدخر جهدا فى بسط نفوذه فى استغلال واضح لضعف العباسيين وانكماش التتاريين حتى ألقى بكل ثقله على شمال العراق وبعدها شمال فارس وراح يدق خيامه داخل مدينة أذربيجان وجميع الأقاليم المجاورة والتابعة لها حتى امتدت دولته إلى مملكة الكرج المسيحية التى أحرقها ودمرها كما أباد من قبل جميع المدن الإسلامية التى اجتاحها وكأنه ابن جنكيز خان ولم يكن ابن أحد سلاطين الدولة الإسلامية!! هل وقفت حدوده عند مملكة الكرج؟! كلا

بل بلغت حـدوده الجديدة من جنوب بلاد فـارس حتى الشـمال الغربى مـن بحر قزوين.

وفى أواخر نفس العام ٦٢٢ هجرية لفظ الخليفة العـباسى الناصر بأمر الله أنفاسه الأخيـرة لتهدأ الأمور بين العـباسين وجـلال الدين ردحاً من الزمان لاسيـما وأن الخليفة الظاهـر بأمر الله بن الناصر لدين الله كان نقيـا تقيا ورعا صـالحا انكفأ على نفسه لإصلاح البلاد وأحوال العباد حتى توفى بعد تسعة أشهر فقط فيما كان والده قد ظل جاثما على العرش طوال سبعة وأربعين عاماً بالتمام والكمال!!!

ثم فى أعقاب وفاة الظاهر تولى من بعده المستنصر بالله والذى ظل خليفة للدولة العباسـية أكثر من خـمسة عشر عـاما استطاع خلالها جـلال الدين الخوارزمى من بسط نفوذ دولته على بعض أجـزاء من تركيا التى اجتاحها وحـكمها بالحديد والدم والجور والاستبداد والظلم حتى استفحل خطره وتعاظم أمره بين الأمم.

* * *

وفاة جنكيز خان

كانت (قولان خاتون) الزوجة المحببة إلى قلب جنكيز خان تشكو ألما حادا فى معدتها هى وابنها (قول كان) وأثناء زيارته إلى مخدعها للاطمئنان عليها أبدت زوجته رغبتها الملحة فى العودة إلى بلادها لتتنسم عبيرها ونسيمها بعيدا عن هذه المناطق الجبلية التى أصابتها هى وابنها بالأمراض الفتاكة ولأن جنكيز خان قد استبد به الغرور والاستعلاء فقد أقسم لزوجته على عدم العودة لبلاده قبل أن يحكم النصف الأخر من العالم بعد أن سيطر على النصف الأول منه.

ومع اشتداد الألم الرهيب على زوجته استدعى جنكيز خان كبير الكهان يطلب منه تدبير وصفة سحرية تطيل العمر وتكبح جماح الموت الذى تخشى منه زوجته ونسى جنكيز خان أن كبير الكهنة نفسه أوشك على الموت فكيف سيطيل عمر غيره وهو قد شارف على حافة الموت!!!

ولأن الكاهن قد عجز عن تدبير الوصفة السحرية فقد اجتاحه القلق والخوف من غضب الخاقان الذى يترقب مجئ إكسير الحياة الوهمى وأمام الخوف من جنكيز خان اتفق الكاهن مع زوجة جنكيز خان (قولان خاتون) سراً على أن يخبر الخاقان بأن عودتها إلى البلاد سوف يطيل عمرها وفق معتقدات وتعليمات الآلهة المزعومين!!

ولأن جنكيز خان قد راح يبحث عن أوهام إكسير الحياة الذى ظن أنه سوف يطيل من عمره فقد راودته أشباح الموت وظن أنه الفراق وأن ساعة رحيله قد أزفت.

كانت رائحة الموت تلاحق جنكيز خان أينما ذهب حتى أنه راح يتحدث مع ابنيه (أوغيداى) (وتولى) اللذين اصطحبهما معه إلى محاربة إمبراطور (التانجو) الذى

دفع جنكيز خان لشن حـملة جبارة لتأديبه وفى خـيمته أثناء استعـداده للحرب كان جنكيــز خان لا يكف عن الحـديث مع أولاده عن الموت الذى أوشك يداهمــه بين ساعة وأخرى.

وحين راح ابنه أوغيداى يناشده ألا يتطرق إلــى هذا الحديث الكئيب أكد جنكيز خان لولديه قائلاً «كل الناس يتمنون الموت على فراشهم إلا أنا أتمنى أن أموت وسط جيشى»!

وقبل بدء المعركة الفاصلة مع إمبراطور (التـانجو) بدأت العلل تجتاح جسد جنكيز خان الذى بات قاب قوسين أو أدنى من الموت..

ورغم اندلاع الحرب بين الجانبين ظل الملك جنكيز خان مسلما فى سبات عميق متدثرا بعباءته وقد تدهورت حالته عند سماعه نبأ مقتل ولده يوشى الذى خلفه ملكا على إمبراطوريته فى بلاد خوارزم وخراسان وهو النبأ الذى عجل بموته.

فكر جنكيز خان مليا وقد ترقرقت عيناه بالدمع ثم التفت إلى حاشيته قائلاً فعلها أخى وقتل ابنى ويابئس التتار من بعدنا!!!

كانت هذه العبارة التى لفظها جنكيز خـان حتى وافته المنية فى عام ٦٢٤ هجرية عن عمـر يناهز اثنين وسبـعين عامـا كانت حافلة بالسلب والـنهب والقتل والذبح والتنكيل والخراب والدمـار والهلاك وكم من ملايين الجـثث التى تناثرت من حوله وفيضانات الدم وشلالات الدمع التى امتلئت منها الأرض حتى أضحت كالبحار.

وهكذا طويت صفحة السفاح والجزار والطاغيـة جنكيز خان ليخلده التاريخ فاتحا دمويا لا نظير له فى التاريخ.

* * *

الفصل العاشر
الطريق إلى بغداد

بعد أن ورای جثمــان جنكيز خان التراب عادت أسرته إلى مـقر الحكم لتنصيب ابنه أوجيتاى خليفة لوالده وزعيمـا على الإمبراطورية التى شيدها جنكيز خان وقائدا لجيش التتار الرهيب.

كان أوجيتــاى يتمتع بالذكاء والدهاء والتريث قبل اتخاذ أية قـرارت تتعلق بمصير البلاد قبل الوقـوف على معرفة اتجـاهات الريح حتى ينأى بنفسه الوقــوع قسراً فى براثن عدو يتـربص به ومن ثم أفاد المؤرخــون أن أوجيتــاى مضى على درب والده فما يتصل بشأن الأحوال العسكرية والداخلية معاً.

فى بداية تولية أوجيتاى الحكم راح بعض رجال جيشه ينصــحونه بأن الوقت قد حان لاجتيــاح الإمبراطورية العباسـية التى تشكو ضعفا وتئن من زحف الشـيخوخة التى تمكنت منها وباتت أحد أهم ملامحها ومعالمها.

لكن أوجيتاى لم يكن مـهرولاً أو متعجلا بل كـان هادئ الطباع صبوراً ومن ثم تنبه لمغبة تلك الدعاوى الرامية لاجتياح الامـبراطورية العباسية وما يمكن أن تتعرض له جيوشه إذا ما حاول المساس بالإمبراطورية التى لاتزال رغم ما أصابها تشغل حيزا هائلاً وكبيرا فى قلوب العالم الإسلامى بأسره.

وربما لإدراكه أن ثمة تحركا ضـخما ضد جيوشه قد يحدث بين عـشية وضحاها وهو ما يمكن أن يؤدى إلى تقليص النفوذ التتـارى وقطع أوصاله وبتر أطرافه واندثار المملكة التى ورثها عن والده.

لكن من جانبه كـان أوجيتاى يتطلع إلى أوربا فهى دولة يضمـها إلى بلاده حتى تتضاعف قوته وتتـسع إمبراطوريته ويتمكن من كبح جماح الإمـبراطورية الإسلامية إذا حان وقت اجتياحها.

ولما تمكن أوجيتاى من بسط نفوذه فى الممالك الأوربية التى أخضعها لحكمه راح يدنو ببصره إلى العالم الإسلامى بوصفه قـاعدة انطلاقة إلى مقر الخلافة ذلك الحلم الذى يداعبه منذ أن كان والده على رأس البلاد.

كانت البداية محاربة جيوش جلال الدين الذى قد كان قد استبد به الضعف ولم يعد بمقدوره مقاومـة التتار أو إلحاق الهزيمة بهم لاسيما وأن الانشـقاقات والحركات الانفصالية التى وقعت منذ سنوات قد كان لها أكبر الأثر فى إضعاف قواته.

وفى الموقعة الأولى التى التقى فـيها الجيشان كانت الهزيمة الـفادحة الكاسحة من نصيب جلال الدين الذى انطلق على متن حصانه الجامح إلى حيث لا يدرى وعلى درب والده عندما طاردتـه جحافل التـتار للإمسـاك به وإهداء رأسه للقـائد جنكيز خان.

وبدأت مسيرة جلال الدين نحو المستقبل المجهول وراح يشق طريقه من بحر إلى نهر ومن وادى إلى صـحراء ومن تل إلى هضبة وواصل الليل بالنهـار لا يستطيع الوقوف أو الاسترخاء حيث كانت جيوش التتار تقتفى أثره.

ومع مرور الوقت وتلاشى هـيبته أمـام رجاله الذين أدهشـهم إصراره على أن ينهى حياته على نفس منوال والده انفض هؤلاء الاتبـاع من حوله بعد أن كانوا على استعداد لفدائه بأرواحهم لعله يرد للأمة كرامـته وللمسلمين عزتهم ويثأر للضحايا منهم.

لكنه قدم فشل ريحهم بمخاوفه التى كانت قد أرغمته على الهرب ولا يعبأ لمصير العالم الإسلامى وأقاليم مملكته التى قاتل شقيقه من أجل الاستحواذ عليها وها هو قد أدار ظهره لهـا بعد أن حمل على ظهور الإبل صناديق اكـتظت بالمال والياقوت والزمرد والماس ظنا منه أنها سوف ترد له يوماً ما ملكه كما حدث من قبل.

وفى منطقة الجزيرة بشـمال العراق راح يتنقل متخفيـا من مدينة إلى أخرى ومن قرية إلى غيرها ومن جـبل لتل ومن سهل لصحراء وفى أعقابه جيـوش التتار حتى نجح فى تضليلهم والاخـتباء بعيـدا عن عيونهم حـتى عادوا أدراجهم إلى قـيادتهم يقسمـون على أنه قد لاذ هاربا شأن والده فى جزيرة نائيـة ستشهد نهـايته آجلا أو عاجلاً.

وفيما كان جلال الدين فى إحدى القرى التى أراد أن يتخذ من أحد بيوتها مأوى له التقى بأحد رجالها الأكراد الذى بادر بسـؤاله عن هديته فأجابه أنه ملك الخوارزم وراح يقص عليه حكايتـه منذ عهد آبائه وما جـرى لهم ويروى المؤرخون أن الرجل الكردى قد طمـأنه على حيـاته واصطحبه إلى داره وتعـهد له بالراحة والـطمأنينة والأمان بيد أن هذا الكردى كان قد فقد أسرته جمـيعها على يد والده الشاه محمد الخوارزمى ومن ثم لاحت الفرصة أمـام الرجل للثأر من الذين أبادوا أسرته وحين استسـلم جلال الدين للنوم غارقا فى سبـات عميق أنهال الرجل عليه ضربا بالفأس فأرداه قتيلا بعد أن سبح فى دمائه لتنتهى حياة جلال الدين غريبا فى بلاد غريبة!!

* * *

نعود ربمـا فى العود ما يفـيد... قـام أوجيـتاى ملك التـتار وابن جنكيـز خان باحتـلال شمال إقليم بلاد فـارس ثم سرعان مـا أطلق قواته نحو إقليم أذربيـجان لبسط نفوذه عليه.

فى تلك الاثناء ولكثرة شواغل الإمبراطور أوجيتاى عهد إلى قائد قواته «شورماجان» ليتولى المسؤلية الكاملة فى إدارة شئون تلك المناطق حتى يتمكن هو من متابعة شئون الأمبراطورية المترامية.

وظلت الجيوش التتارية بقيادة شورماجان تدير شئون إقليمى فارس وأذربيجان وجاثمة على صدور أهلها حتى بدأت فى عام ٦٣٤ هجرية شن حملات عسكرية موسعة وضخمة على أقاليم أرمينيا وجورجيا والشيشان وداغستان.

ثم أطلق أوجيتاى حملة أخرى بقيادة (باتوبن جاجى) الذى أباد القبائل التركية المرابطة فى شمال بحر قزوين ثم سرعان ما اتجه بحملته إلى مناطق روسيا الواسعة والمترامية حتى تمكن من إخضاعها واحتلالها لتدشين مضارب التتار الأمر الذى أدى إلى استفحال خطر التتار على العالم بعد أن سيطروا على تلك المناطق المؤثرة والاستراتيجية.

ما من شك أن بلاد الروس كانت عصية على أية حملات بيد أن التتار استطاعوا بقوتهم وقدرتهم الفذة من السيطرة على جميع مناطقها فى أقل من عامين رغم بسالة الجيش الروسى وقسوة البرد الشديد ومن هنا كان مثيرا للدهشة أن تتناثر حبات العقد الروسى حبة بعد أخرى حيث سقطت على التوالى ودون عناء المدن الروسية التى تعرضت للإبادة والسلب والنهب والاغتصاب وحرق وتخريب الكنائس وكسر الصلبان وسط ضحكات المغول الطغاة السفاحين.

وفى ٦٣٨ من العام الهجرى لم تكن دولة أوكرانيا سوى إحدى مناطق نفوذ الجيش التتارى بعد أيام حافلة بالذبح والقتل والخراب والدمار وتعذيب الأبرياء.

بعد أكثر من ثلاثة شهور انطلقت حملة تتارية أخرى قصدت مملكة بولندا التى تعرضت مدنها لخراب ودمار أثار الأسى والأسف لتبديد كنوز وآثار كان الشعب البولندى يتفاخر بها.

ولأن الأمير هنرى دوق (سيليزيا الألمانية) اشترك مع ملك بولندا فى توحيد جيش بلاده مع الجيش البولندى للتصدى للخطر المغولى الذى أوشك على اجتياح الأراضى الألمانية بعد أن أخضع أكثر مدن بولندا لنفوذه بيد أن التتار قد تغلبوا على جيش الوحدة ونال هزيمة ثقيلة كان لها تأثير بالغ على معنويات الشعوب الأوربية التى روعها انتصارات التتار وزحفهم الكاسح.

وفى عام ٦٣٩ هجرية سال لعاب التتار على بلاد المجر وباتت الهدف الذهبى الذى ينبغى تصويب السهام نحوه ولم تكن المجر أوفر حظا من غيرها حيث نالت هى الأخرى هزيمة ساحقة على أثرها أصبحت المجر ضمن المناطق الخاضعة الخانعة لجيوش التتار.

وفى طريقه إلى دولة كرواتيا اجتاح (باتو) القائد التتارى دولة سلوفاكيا التى استسلمت خوفا من الإبادة.

وحين بلغ النبأ دولة كرواتيا استسلمت هى الأخرى خوفا من مغبة التصدى والمقاومة والصمود.

وفيما كانت الجيوش التتارية تواصل زحفها وتعتزم إخضاع أوربا بأسرها لحكمها وسيادتها ونفوذها بلغ قائد الحملة الأمير (باتوبن جاجى) نبأ وفاة الخاقان أوكيتاى الأمر الذى أضطر معه باتو أن يصدر أوامره بوقف الزحف التتارى لحين عودته من منغوليا لمعرفة الخاقان القادم وأهدافه وما يعتزم القيام به فى السنوات القادمة.

وهكذا جاء ٦٣٩ هجرية ونصف القارة الأوربية دليلا تحت سنابك خيل التتار والنصف الأخر يترقب ما يحدث ويتأهب للتصدى لهؤلاء الطغاة الذين سوف يعاودون شن حملاتهم مرة أخرى عقب عودة باتو من منغوليا.

* * *

فى العاصمة (قراقورم) المنغولية تولى (كيوك بن أوكيتاى) مقاليد الحكم فى البلاد عقب وفاة أبيه بعد احتفالات صاخبة وأناشيد وطنية وقصائد ألقاها بعض الشعراء من مختلف بلاد العالم ويشن اللغات واللهجات.

وبعد أن انتهت منغوليا من احتفالاتها التى استمرت أسبوعا كاملا راح الخاقان الديد (كيوك) يستدعى مجلس حرب جيش التتار للتشاور معهم والوقوف على الأوضاع العسكرية وتطوراتها ومدى استعداد الجيش للمضى قدما فى ترسيخ أقدامه داخل بلاد أوربا التى لم تخضع بعد له وبعد مداولات ومناقشات حامية كان الخاقان ينصت خلالها باهتمام شديد راح (الخاقان كبوك) يطلب فض الاجتماع لحين اتخاذ القرار المناسب مع بعض أقرب رجاله المخلصين.

وبعد ساعات شهدت نقاشا حادا وصاخبا بين خلصاء الملك وبينما كان قادة الحرب ينتظرون على صفيح ساخن ما سوف يتمخض عنه هذا الاجتماع الخطير والمهم وردت أنباء من المناطق الأوربية الخاضعة للجيش التتارى تشير إلى قيام ملوك أوربا بتوحيد جيوشبهم أو استعدادهم للتعاون فيما بينهم لمجابهة الملات التتارية إذا عادت لمواصلة زحفها وأن انتقاض لدى الشعوب الأوربية أشعلت جذوة الجماس والتأهب لملاقاة التتار.

والواقع أن هذا البنأ قد أثار عاصفة من القلق والاضطرابات داخل مجلس الحرب ولاسيما أن الخاقان كيوك كان من أنصار وقف الحملات وتكريس أوضاع التتار فى المناطق التى بسطوا نفوذهم عليها والاكتفاء بها حتى لا تتراخى قبضتهم وتعجز الجنود عن حفظ الأمن ونشر الهدوء إذا اتسعت حدود الدولة إلى أكثر مما هو لازم وضرورى.

كان الخبر هو العصا التى توكأ عليها الخاقان ولوح بها وأمر بضرورة تجميد الحملات لتظل حدود الأمبراطورية المنغولية شرق كوريا إلى غرب بولندا ومن شمال سيبريا إلى بحر الصين جنوبا اضف إلى ذلك الأقاليم الإسلامية الآسيوية.

المهم مضت الأمور على هذا الحال وحين علمت أوربا بأمر الخاقان ورغبته فى عدم التوسع والزحف نحو حدود بلادهم راح البعض منهم يسعى جاهدا لتوطيد أو ضرار المحبة والصداقة بينة وبين الخاقان وحصة على التعاون فى ضرب الخلافة الإسلامية.

ولكن باءت هذه المحاولات بالفشل حيث لم يكن هناك انسجام.

بين الشعوب المغولية والأوربية وإن كانت هناك بعض الزيجات التى تمت بين الرجال المنغوليين والنساء الأوربيات قد دفعت بابا روما لتعميق الصداقة مع المغول.

لكن من جانبهم كان المغول لا يلتفتون إلى مثل هذه العلاقات حيث كان الغرور قد استبد بهم وظنوا أن هذه العلاقات ما هى إلا وسيلة لاستقطابهم واستمالتهم وقد ساءها تدخل البابا (أنوست الرابع) السافر فى شئونها حين طالب من الخاقان أن يعتنق الديانة المسيحية ويعمل على نشر تعاليم المسيح فى بلاده وممالكه الخاضعة لنفوذه.

كان الخاقان (كيوك) قد اعتبر دعوة البابا لبلاده تدخلا وقحا فى أدق شؤون الإمبراطورية الأمر الذى أدى إلى تمزيق الخيوط الواهنة التى كانت قد امتدت بين المغول وأوربا.

نهايته... فقد رحل الخاقان كيوك عن الدنيا بصورة مفاجئة لأن أطفاله الثلاثة كانوا صغارا فقد آلت مقاليد السلطة إلى زوجته (أوجول قيميش) التى كانت الوصية الوحيدة عليهم ومن ثم أجاز لها حكماء البلاد تولى السلطة لحين بلوغ أكبر أطفالها السن القانونية لتوليه السلطة.

وبالفعل ظلت تلك الأرملة الشابة سيدة نصف بلاد العالم طوال ثلاث سنوات كان المغول خلالها يتميزون غيظا من توليتها الحكم وهم الذين أطاحوا عروش أوربا وداسوا على تيجانها ورموزها وسلوكها فكيف تحكمهم امرأة بعد كل هذه الفتوحات؟!

والواضح أن حالة من السخط والتزمر قد اجتاحت صفوف التتار أدت إلى الهرولة لتنصيب خاقان جديد يتولى حكم البلاد بدلا من تلك الأرملة التى يشعر التتار نحوها بالعار وهو ما قد يترتب عليه انشقاقات وحركات انفصالية قد تؤثر على استقرار الإمبراطورية وبعد اجتماعات مطولة ومناقشات صاخبة وأحاديث ساخنة قرر المجلس الوطن المغولى تنصيب (منكوخان) خاقان على الإمبراطورية عام ٦٤٩ هجرية.

ومع تنصيب منكوخان فى احتفالية شهدتها البلاد راح مجلس الحرب بعدها ينعقد للدعاة التشاور والتباحث فى الشأن العسكرى وما يمكن للجيوش القيام به فى ظل ولاية منكوخان؟!

وعاد النقاش الحاد مرة أخرى.... هل ستظل الأوضاع العسكرية على ما هى عليه أم أنها سوف تتحرك قدما إلى الأمام وتبدأ فى معاودة زحفها مرة أخرى نحو البلاد التى لاتزال بعيدة عن قبضة التتار؟!

كان (منكوخان) الخاقان الجديد للتتار متعطشا للدماء يتطلع إلى تنصيب نفسه خاقان العالم حيث كان يرى أن بلاده ينبغى أن تدين لها الكرة الأرضية بالولاء والخضوع...

وما دام ذلك كذلك فلم تكن الخلافة الإسلامية بمنأى عن هذه الأطماع والتطلعات بل أظنها كانت أول الغيث فى السيول والعواصف والأعاصير التى سوف تجتاح العالم ولاسيما مركز ومدن الخلافة الاسلامية.

والواقع أن منكوخان كان عجـولا متسرعا فى دفع حملة واسـعة جبارة ومن ثم أوكل إلى قيـادتها شقيـقه الرهيب السفـاح الطاغية (هولاكـو)!! وما أدراك من هو هولاكو).

* * *

هولاكو

كان هولاكـو الأخ الأصغر للخـاقان التتارى منكوخـان بيد أنه أضحى الأشـهر والأبرز بوصفه سفـاح التتار وجزار الإنسانية والرجل الذى لا تعـرف الرحمة طريقا إلى قلبـه حيث كـان يرقص طربا على صـرخـات الضحـايا وآهاتهم دون وازع أو ضمير.

أما شقيقه (أريق بوقا) فقد تميز عنه بالهدوء والعقل والمثابرة ومن ثم اضطر الخاقان منكوخان لابقائه بجانبه لاستشارته فى كيفـية إدارة شؤن الإمبراطورية ويسير أعمالها بما حفظ لهـا قوتها ومكانتهـا واستقرارها وحـدودها وإذعان الشعوب وإخـضاعهم لسلطانه.

كان هولاكـو فى بادئ الأمر مـسئولا عن إدارة شـئون إقليم فـارس وكثيـرا ما داعبته أحلام السيطرة على بغداد وإبادة الخلافة وكسر عفتها حتى لا تقوم لها قائمة مرة أخرى ويروى التـاريخ أن هولاكو كان أكثر استـعجالا من شقيقـه الخاقان على بسط جناحين على الخلافـة الإسلامية وأنه كثيرا مـا أرسل يطلب إذن الخاقان على اجتيـاح بغداد بيد أن الخاقان كـان يدرس الأمر بعناية فائقة خـوفا من مغبة اجـتياح الخلافة التى يلتف حولها الشعوب الإسلامية فى شتى بقاع العمورة.

لكن أكدت التقـارير الواردة من قلب العالم الإسلامى أن الشعـوب التى تنتمى للديانة الإسلامية فى سبات عمـيق وأن خروجهم للجهاد بات من ذكريات الماضى وأن قوة الدولة العباسية ما هى إلا أكذوبة كـبرى تحكم بها وتعيش عليها وتخيف بها أعداءها فيما أن الحقيقة أنها عملاقة من زجاج لا يتحمل حجراً واحداً!!

من هنا بعث الخاقان منكوخان مرسوما إلى شقيقه السفاح الشهير (هولاكو) الذى يقضى بالبدء فى تدشين حملة ضخمة وهائلة لاجتياح الدولة العباسية.

فى تلك الأثناء كان هولاكو قد فرغ من تجهيز قواته وإعداد خططه حيث ظل عدة سنوات يتأهب لهذه اللحظة التى تاق إليها وقيل إن هولاكو كان مبتهجا وفرحا عند استلام هذا المرسوم حتى أن زوجته (طفز خاتون) قد أعدت وليمة كبرى دعت فيها كبار قادة الجيش ابتهاجا بهذا المرسوم الصادر كانت (طفز خاتون) تحمل فى صدرها كرها وحقدا دفينا للإسلام والمسلمين ومن ثم كانت تشاطر زوجها سعادته ومروره وغبطته وتحصنه على المضى قدما فى تدمير الخلافة الإسلامية وفى أوائل عام ٦٥٤ هجرية تحركت جحافل التتار يتقدمهم السفاح (هولاكو) بعد أن فرغ من تمهيد الطرق التى تربط الصين بالعراق فضلا عن بناء وتشييد جسور كثيرة على الأنهار حتى يسهل مرور قواته دون أية عوائق تعرقل سيرهم وانطلاقاتهم أضف إلى ذلك ما قام من سيطرة ميدانية تامة وكاملة على جميع المدن الاستراتيجية على وجه الخصوص لقطع الطريق على أية محاولات قد تقوم بها الأقاليم الاسلامية للحيلولة بينه وبين جيوش الدولة العباسية.

أما الذى أثار إعجاب المؤرخين بسياسة هولاكو رغم دمويته هو حرصه الشديد على تذليل كافة الصعوبات وتوظيف الإمكانات المتاحة لتوفير مناخ ملائم للقوات المقاتلة حتى أنه قام بإخلاء جميع الطرق من الصين إلى بغداد من القطيع لكى تتناول خيوله ودوابه الحشائش إذا ما نضب المخزون أثناء معاركه!!

أضف إلى ما سبق براعة هولاكو فى توظيف بعض القساوسة وكبار النصارى العراق للعمل سراً لصالح التتار وذلك بنقل المعلومات والبيانات الدقيقة والخطيرة والمؤثرة فى ذات الوقت وكان فى طليعة الذين تعاونوا سراً مع رجال هولاكو

بطريرك بغداد «القس (ماكيتا) الذى ألقى بكل ثقله فى خدمة التتار ظنا منه أن الإسلام سوف يتقلص تدريجيا لينتهى إلى الأبد كأنه مكون ثقافى لادين سماوى يشكل عقيدة غالبية البشر.

ربما توافقت أهواء هذا البطريرك الخائن مع رغبات النصارى فى أوربا سواء فى جورجيا أو أرمينيا أو حتى إنطاكية وغيرهم من البلدان المسيحية فى أوربا الذين هرعوا إلى عقد المعاهدات مع (منكو خان) على اعتبار أن الغلبة حتما سوف تكون للتتار فى المواجهات القادمة كما أن الخلاف مع المسلمين خلاف عقائدى لما للإسلام من مخاطر جسيمة على أوربا فضلا عن ايمانهم الشديد بأن التتار الذين لا يؤمنون بعقيدة جادة وراسخة ومتينة سرعان ما ستندثر حضارتهم وتتلاشى قوتهم ويضمحل نفوذهم وأنهم مجرد ظاهرة ستزول لا محالة آجلا أو عاجلاً فيما سيبقى الإسلام كعقيدة صلبة مضروبة فى أعماق الصدور.

* * *

ولأن هولاكو كما أسلفنا يتمتع بذكاء ودهاء وحنكة سياسية رغم ما اشتهر به من بطش وعنف ووحشية فقد استأذن شقيقه الخاقان (منكوخان) فى محاولة استمالة بعض الأمراء واستقطابهم تمهيدا لاجتياح الخلافة الإسلامية.

من جانبه رحب الخاقان بخطوات شقيقه حيث كان هو الآخر قد أبرم العديد من المعاهدات والاتفاقيات مع ملوك أوربا وأمرائها الذين استصغروا أنفسهم وعقدوا اتفاقيات مهينة وذليلة لاتتناسب مع تاريخ أوربا لكنها تتواءم مع قدراتها وإمكاناتها إذا قورنت بالعدو التتارى أما هولاكو فقد عقد تحالفا مع الأمير «بدر الدين لؤلؤ» الذى كان يحكم الموصل وقد أبدى ولاءه التام لهولاكو تجنبا لغضبته وإيمانا منه بأن الهزيمة ستكون من نصيب الدولة الإسلامية ومن ثم لم يدخر وسعا لتوثيق أواصر الصداقة مع العدو.

وعلى أثر تلك الصداقة التى ذاع صيتها أقبل «كيكاوس الثانى» أحد سلاطين السلاجقة جاثما على ركبتيه راغبا فى تعميق صداقته ومحبته الزائفة مع هولاكو فيما سارع السلطان «قلج أرسلان الرابع» وهو من حكام السلاجقة أيضا لإظهار مدى ولائه الشديد لهولاكو وقواته.

وكانت هذه العلاقات خطيرة ومهينة معا حيث كانت تفرض بموجبها حصارا حديديا على العراق وخنقه من ناحية الشمال على وجه التحديد وهو ما يبرهن على عبقرية هولاكو وقدرته على تسخير وتوظيف الأجواء المحيطة واستخدام كافة الأوراق التى فى يديه لدغدغة أعصاب أعدائه بهدوء وإناة!!!

لم تقف جهود هولاكو عند هذا الأمر بل بلغت شأنا كبيراً وهائلاً ومثيرا حيث تمكن من استلاب عقل الرجل الثانى فى بلاط القصور العباسية والذى كان العقل المدبر والمحرك لخليفة المسلمين المستعصم بالله.

أما هذا الرجل الخائن الذى كان ينتمى إلى المذهب الشيعى كان يدعى مؤيد الدين العلقمى ومن ثم كان شديد العداء للمذهب السنى وأتباعه وبلغ أمره هولاكو الذى خطط وفكر ودبر وقرر أن يسعى عبر أدواته ووسائله الخفية لاجتذاب هذا الشيعى المتطرف وإقناعه بأهمية زوال تلك الخلافة السنية.

كان هولاكو قد تعهد له بتعظيم المذهب الشيعى حال دخول بلاده بغداد وتقليص دور المذهب السنى وتحجيم دوره وتقزيم علمائه ورجاله وشيوخه فضلا عن تنصيبه على رأس البلاد جزءاً له على ما سوف يقدمه لدولة التتار وتسهيل اجتياحها لبغداد عبر تضليله للخليفة وخداعه وغير ذلك من الأساليب الجهنمية لتفتيت الدولة الإسلامية الكبرى.

وهكذا ومن خلال الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمى تمكن هولاكو من الوقوف على آخر قرارات خليفة المسلمين التى يصدرها سراً بشأن إعداد جيوشه لملاقاة التتار!!

أما الناصر يوسف أمير دمشق وحلب وهو بالمناسبة أحد أحفاد البطل التاريخى الناصر صلاح الدين الأيوبى فقد تكالب هو الآخر على إظهار خنوعه وخضوعه وإذلاله للقائد هولاكو وقد استغرب هولاكو هرولة أمراء المسلمين على أعتاب قصره وهو يضرب كفا بكف لا يصدق أن هذه الدولة الكبرى العريقة تتساقط أعمدتها عامودا بعد الآخر بل ويتسارعون فى إبداء الولاء والوفاء لسلطانه.

وزاد من دهشة هولاكو إصرار أمير حلب وحفيد صلاح الدين على موافقة هولاكو لقبول ابنه (العزيز) بوصفه قائدا عسكريا على رأس فرقة مشهود لها بالكفاءة والقوة لمساعدة التتار إذا حانت لحظة اجتياح بغداد!!!

وحين علم الأمير «الأشرف الأيوبى» بما أقدم عليه أمير حلب ودمشق آنطلق كالثور الهائج حاملا معه ما خف وزنه وغلا ثمنه وجثا على ركبتيه مؤكدا حرصه على إبداء فروض الطاعة لخاقان التتار واستعداد جيشه للمحاربة فى صفوفهم مقابل أن يحظى بالرضا السامى من عظمة القائد هولاكو!!

يا الله... ألهذا الحد تغلغل سوسى الخيانة والخسة والنذالة لكى ينخر فى عظام الخلافة العباسية؟!

ألهذا الحد هانت على المسلمين أنفسهم؟ ويالها من أسماء براقة الأشرف والناصر وبدر الدين ومؤيد الدين مالهم نصيب منها ويا لها من مصيبة تلك التى رمانا بها الزمان حين يجثو حفيد صلاح الدين على ركبتيه متوسلا لأعدائه بخدمتهم فى ضرب أخوانه وذبح أبناء أمته ودينه!!!

ما أبشع هذه الدنيا وما أفظعها وما ألعنها. . . . حفيد الناصر صلاح الدين فى خدمة الهمج والسفاحين والطغاة!!! ألا لهذا الليل الطويل من أخر. . .

ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الإصباح منك بأمثلِ

كما قال أمرؤ القيس.

* * *

على أية حال بدأ هولاكو فى توظيف المناخ الذى بدا ملائما لاقتناص الفريسة ومن ثم راح يستدعى عدداً كبيراً من الرماة المهرة فى الصين كما طلب المدد من ملك الكرج. .

كانت المفاجأة أن ملك أرمينيا قد جاء بنفسه لتقديم المساعدة وهو يتقدم فرقة ضخمة من الجنود الأرمينيين!!

ولأن هولاكو كان يشعر أن الخلافة العباسية ماتزال تقف على قدميها وأنها تستطيع صد هجماته وإلحاق الهزيمة وفق تاريخها الطويل والذى كانت عبر سنواته دولة مرهوبة الجانب.

وقبل أن يوشك هولاكو على اجتياح بغدادا رسل إليه شقيقه قوافل إمداد هائلة حتى يتمكن من إنجاح حملته دون أية عراقيل فأرسل إليه الأمير القائد (باتو) فاتح أوربا والقائد المغولى المشهور «بيجو» الذى كانت قواته تتمركز فى منطقة شمال تركيا.

استقبل هولاكو بنفسه أمير مدينة الموصل بدر الدين لؤلؤ الذى ترأس فرقة عسكرية حتى لا يحظى حفيد صلاح الدين أمير حلب بالرضا المغولى ويستأثر به بمفرده.

أضف إلى ذلك نجاح هولاكو فى دراسة أحوال الجيش العباسى عبر أدواته التجسسية التى استطاع زرعها فى قصور الخليفة المستعصم بالله الذى كان قد بدا

حائرا تائها لا يدرى ما الذى ينبغى القيام به إزاء هذه الهجمة التتارية الشرسة وكعادة العرب جميعا سواء فى العصر القديم أو الحديث راح الخليفة المستعصم ينتظر مرتعداً عدا الضربة الأولى وكأن القدر قد كتب على العرب دون غيرهم انتظار الضربة الأولى والأخيرة والتى كثيرا ما أبادت ودمرت وأهلكت تأمل التاريخ الحديث منذ دخول الإنجليز مصر - حيث انتظر عرابى ورجال جيشه دخول الإنجليز مصر وهو الذى كان يعلم أن سفن الإنجليز قد رست على رصيف ميناء الأسكندرية وكان بمقدور عرابى ورجاله إفشال مخطط دخولهم من خلال تخريب وتدمير أرصفة الميناء أو مقاومتهم قبل أن تنتشر قواتهم وتدور المعركة فى قلب الوطن بدلا من أن تندلع شرارتها على أطرافه.

تأمل مجئ اليهود إلى فلسطين وقد ظل العرب جميعا ينتظرون تدفق الهجرات حتى استفحل خطر اليهود الذين استطاعوا تدشين جيش قوى قام بتكريس أوضاعه على أرض فلسطين بعد أن شن غاراته الإجرامية بقيادة مناحم بيجين وإسحاق شامير وإسحاق نافون وغيرهم.

كان العرب فى ذلك الوقت يراهنون كالعادة على عنصر الزمن الذى ربما يأتى برياح عاتية قد تغرق سفن الأعداء.

لكن الواقع أن الرياح كثيرا ما أتت بما لا تشتهى سفن العرب وقد تجلى ذلك عام ١٩٥٦ حين انتظرت مصر الضربة الأولى وكانت بالطبع الأخيرة باستثناء بعض المناوشات الشعبية فبينما كانت الضربة الأولى عام ١٩٦٧ قاصمة قاضية قاتلة مازالت الأمة العربية تذرف دمعها وتنزف دماءها من هول تلك الضربة التى انتظرناها دون أدنى استعداد.

والواقع أننى لا أدرى إلى متى سنظل ننتظر الضربة الأولى ولماذا نتخذ دائما مواقف عنترية وسرعان ما تتبخر حين يتأكد لنا أن العدو فى سبيله لمحاربتنا. .. .. ..

السلطان محمد الخوارزمى ألقى القبض على رجال جنكيز خان ثم أودعهم السجون وفى داخلها ذبحهم كالنعاج ثم فتك رجاله برسول جنكيز خان الذى جاء ليستفسر عن مصير التجار الذين جاءوا للتجارة وبغض النظر عن هويتهم تجاراً كانوا أم جواسيس فما كان ينبغى الفتك بحياة مبعوث جنكيز خان حيث إن اغتيال هذا الرجل فى حضرة سلطان البلاد هو إعلان حرب يجب التأهب له والتحرك على قدم وساق تحسبا لتداعياته.

أما أن يطلق السلطان ساقه للريح كرد فعل لحملة جنكيز خان فهو ما يدفع المرء للتساؤل ما دمتم غير قادرين ولم تكن لديكم النية لمحاربة المغول فلماذا ذبحتم رجاله وأطلقتم كعادتكم الصيحات والشعارات الرنانة والطنانة الخادعة الزائفة؟!

جمال عبد الناصر أغلق مضيق تيران أمام السفن الإسرائيلية وطالب الأمم المتحدة بسحب قواتها وأرسل فرق الجيش المصرى للحدود المصرية الإسرائيلية دون أدنى استعداد للمجابهة فكان ما كان فى صباح الخامس من يونيو ١٩٦٧.

وصدام حسين كاد رؤساء الدول وملوكها يقبلون يديه وقدميه لسحب قواته من الكويت لتجنيب بلاده وجيشه ويلات حرب لا قبل له بها. بيد أنه أصر على عناده وتحجره وصلابته فجرى ما جرى لجيشه ولبلاده ولشعبه ولشخصه وعلى العالم العربى سداد فاتورته طوال مائة عام قادمة!!!

اللعنة على الضربة الأولى تلك التى كانت دوما بوابة للجحيم وجسرا للأهات وحائطا للمبكى.

نعو والعود يسر العدو ويدمى قلب الحبيب.. فى طريقه إلى بغداد تنبه هولاكو لطائفة الإسماعيلية تلك الطائفة التى اشتهرت بالقوة والعناد والصلابة والتحصن فى القلاع الجبلية العتيقة وقد قرر هولاكو إبادتها إذا لم تستسلم فى الحال.

ورغم أن رئيس طائفة الإسماعيلية ركن الدين خورشاه قد خرج من موقعه للتفاهم مع هولاكو وإعلان الاستسلام مقابل الأمان بيد أن القائد العسكرى للطائفة ومن وراء جنوده قد استهجنوا سلوك وتصرف رئيس الطائفة وصمموا على المقاومة.

من جانبه كان هولاكو قد ضاق ذرعا حيث تاق إلى مواجهة الخليفة المستعصم بالله وأن طائفة الإسماعيلية قد قطعت شوطا من الوقت يفوق ثقلها ومكانتها ومن ثم بات التخلص منها واجبا لا مناص منه لاسيما وأن أوامر صدرت من الخاقان منكوخان أكدت على ذلك.

وبالفعل تحركت جيوش هولاكو صوب مواقع طائفة الاسماعيلية بعد أن اغتالت يد الغدر رئيس الطائفة «ركن الدين خورشاه» غير أن هولاكو رأى أن يمكنه أن يتخلص من الطائفة فى ضربة واحدة.

وفكر هولاكو فى الادعاء برغبته الملحة فى إبرام معاهدة صلح من قادة الاسماعيلية حيث جاء فى الاتفاق المزعوم تعظيم مكانة ودور الطائفة الاسماعيلية إذا تولت الطائفة تدعيم التتار فى حملاتهم على بغداد وذلك بعد أن يستدعى رؤسائها جميع أبناء الطائفة من بلاد الشام والعراق والأناضول لمؤازرة التتار.

وعلى الفور استدعى القادة أبناء الطائفة الذين هرولوا على عجل امتثالا ونزولا على رغبة رؤسائهم.

وحين تأكد لهولاكو وصول جميع أبناء الطائفة استدعى سيف الغدر ورمح الخيانة وراح يأمر قوات جيشه لحصن أرواح الطائفة والقضاء عليها قضاء لا رجعة منه وهو ما أدى إلى ارتكاب مجزرة رهيبة راح ضحيتها الآلاف فى بهيم الليل باستثناء بعض الذين لاذوا بالفرار هربا من صليل السيوف الجارحة وصهيل الخيول الجامحة.

إذن انتهى التتار فى خلال أيام من عقبة الطائفة الإسماعيلية التى اقتلعوا جذورها وقطعوا رقـابها لتصبـح بغداد الهدف القادم وعلى مـرمى حجر وحـيث إنها الحلم الذى داعب رؤوس التـتار منذ مـجئ الحملة الأولى لجنكيـز خان المؤسس والقـائد الرمز وها هى قد عادت مرة أخـرى لعل بغداد قد تضاءلت وتقزمت ومن ثم بات اجتيـاحها سهـلا يسيراً بعد أن كان فى زمـن ما شاقا وصعـبا وعسيراً عـلى التتار وغيرهم فهل ستصمد بغداد أم أنها ستفتح ذراعيها لهولاكو السفاح الجديد؟!

* * *

الفصل الحادي عشر
احتلال عاصمة الرشيد

هل ستصمد عاصمة المنصور وأبو حنيفة والرشيد وكيف كان حالها وجيوش التتار على وشك أن تدق أبوابها بعنف وبقوة لاجتياحها وإرغامها على الدوران فى الفلك المغولى والتسبيح بحمد الخاقان والتمجيد بعظمته لعنه الله؟!

فى ذلك للعام ٦٥٦ هجرية كانت عاصمة الدولة العباسية مدينة حصينة متينة صلبة تستعض على الغزاة طوال تاريخها المجيد وبداخل حصونها وقلاعها ومخابئها أسلحة لا حصر لها وخليفة اشتهر بين رعاياه بالعدل والطيبة ودماثة الخلق وحب الفقراء والعطف عليهم وأداء الصلوات والحرص عليها فى مواقيتها والاحتفال بالمناسبات الدينية.

لكن هل كانت هذه المزايا درعا واقيا وحصنا منيعا لصد هجمات التتار؟ كلا بل كانت هذا القلاع والحصون والخيول والسيوف والرماح تفتقر إلى رجال يعاهدون الله على نصرة دينه ورفع رايته وكسر أعناق أعدائه لكن هؤلاء الرجال وفى طليعتهم الخليفة المستعصم بالله قد دب الخوف فى صدورهم وسكن كالوحش متمدداً حتى عجزوا عن مجابهة أعداء الدين والبلاد.

أما الخليفة فلم يكن ذا دراية عسكرية بقدر ما كان عاشقا للهو والغناء ومشاهدة الرقص.

لم يكن الخليفة بطبعه ميالاً إلى الحروب والقتال ومن ثم لم يشأ متابعة ورصد قوات جيشه للوقوف على آخر الأوضاع كان الخليفة كسولاً يتلذذ بأحاديث السمر والشعر والغناء ولم تكن نفسه تستعذب ميادين الجهاد وصور ومشاهد التدريبات.

من هنا كانت بغداد تفتح ذراعيها ترحب على مضقى والدمع يسكنها والحزن يلفها والأسى يحتويها بعد أن سلم رأسها الخليفة لسيف هولاكو زاعقا باسم الله الذى لا يحمد على مكروه سواه!!!

أما الشعب فقد كان يئن من وطأة الظلم والاستبداد وجمع الجبايا الباهظة التى لم تكن تتوقف عن جمعها جباة الخليفة للاتفاق على طعامه وثيابه وشرابه وسهراته وأصدقائه وبذخه واسرافه ليذهب شعب الخلافة إلى الجحيم فداء الخليفة المعتصم بالله!!!

وعندما علم الخليفة وشعبه بأمر اقتراب التتار دب الفزع فى النفوس وراح الجميع يضربون كفا بكف يتساءلون ماذا سيصنع خليفة البلاد ازاء هذا البلاء القادم؟!

كانت الحكايات التى يرويها البعض عن التتار تكاد تخلع القلوب وتشل الأطراف حتى قيل إنَّ هولاكو أرسل جواسيسه وأتباعه لبث الرعب فى الصدور وزرع الخوف فى القلوب حتى يعصف اليأس بأهالى بغداد فلا يقوى أى منهم على محاربة التتار فيتسنى لهولاكو وجيشه دخول بغداد دون مشقة!!

* * *

فى صباح الثانى عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ هجرية حطت حجافل التتار دوابها وجمالها وخيولها وعرباتها أمام أبواب ومنافذ وأسوار عاصمة الرشيد للبدء فى فرض حصار شديد يلتف كالأفعى حول عنق بغداد.

كان هولاكو قبل أن يحط راحلته قد عقد اجتماعا عاجلاً وسريا مع قادة جيشه وقد كان على رأسهم القائد (بيجو) وكتبغا الذى اشتهر بذكائه ودمويته!!

قام هولاكو بتقسيم جيشه إلى ثلاثة أقسام على النحو التالى:

الجيش الأول يقوده هولاكو ويستصدر منطقة القلب وسيتولى مهام فرض الحصار على عاصمة الخلافة أما الجيش الثانى فقد تولى القائد (كتبغا) رئاسته حيث كان هذا الجيش يعد الجناح الأيسر للحملة التتارية وقد قضت الخطة التى رسمها هولاكو بدفع هذا الجيش صوب بغداد على أن يكون فى الجهة الجنوبية من جيش هولاكو الأول.

لكن الجيش الثالث الذى يقوده القائد العسكرى المحنك «بيجو» فقد صدرت إليه الأوامر بالتحرك إلى ناحية شمال بغداد على أن يحاصرها من الناحية الغربية لتصبح العاصمة بغداد واقعة تحت حصار حديدى فرضته الجيوش الثلاثة كان لافتا للانتباه نجاح الجيش التتارى فى اختراق مسيرة بلغت حوالى ألف كيلو متر سلك خلالها سهولا وجبالا وعبر بحاراً وأنهاراً وصعد مرتفعات وهبطت وديان دون أن يتعرض له أحد أو يكشف أمره رجال الخليفة العباسى الذين كانوا يسهرون حتى الصباح يتمايلون ويرقصون حتى الثمالة!!

(لاحظ أن حرب يونيو ١٩٦٧ قد اندلعت ليلة حفل أنشاص الذى أحيته كوكبة من الفنانين والراقصات داخل قاعدة أنشاص الجوية ليلة ٤ يونيو ١٩٦٧ وكأن الصورة مكررة بالكربون!!!) إذن اقتربت المواجهة وحانت لحظة الحسم ودقت ساعة الصفر وها هي طبول الحرب تفرغها فرق التتار وصيحتهم الشهيرة تكاد تهدم أسوار بغداد هوووو هوووووو هووووووه.

أصدر الخليفة مرسومه العسكرى بتجميع الجيش وراح المنادى يصرخ بأعلى صوته مستدعيا الرجال والشباب الاشداء للانخراط فى صفوف جيش الخليفة وكأن لسان حاله يكاد يقول ما قاله امرؤ القيس ليلة مقتل والده (اليوم أمر وغدا خمر) لكن الواقع أن اليوم كان خمرا فالأمر لم يعد ممكنا:

واجتمع الخليفة مع رجاله وخلصائه للوقوف على الأوضاع الخطيرة وانتهى الاجتماع الطارئ أو بالأحرى بالصورى بتكليف القائد المسكين «مجاهد الدين أيبك» بتعقب التتار وكأن الجيش التتارى يتألف من بضع مئات أو مجموعة مكونة من البلطجية واللصوص وقطاع الطريق..

لم يكن الخليفة متنبها لخطورة وضخامة وقوة وكثافة عدد الجيش المغولى الرهيب وظن أن الأمر لن يستغرق سوى أيام لنحر هؤلاء الهمج الذين تجاسروا لحصار عاصمة الخلافة.

بالطبع كان الأمر خطيرا وأوضاع العاصمة تتدهور من سئ إلى أسوأ ومن خطر إلى ما هو أفظع وأخطر وأن رائحة الموت تقترب من المدينة التاريخية العظيمة.

نهايته... تحرك القائد مجاهد الدين أيبك بقواته البسيطة التى لا تدرى إلى أين المسير قاصداً مواجهة التتار وطردهم شر طردة بيد أن الأبناء السيئة وردت تباعا وأشارت إلى أن الأمر لا يقتصر على تمركز جيش هولاكو على أسوار بغداد فحسب بل إن القائد بيجو فى طريقة من أوربا قاصدا بغداد على رأس حملة جبارة وأنه أصبح الأن قريبا من عاصمة الخلافة.

مجاهد الدين أبيك للحصار الذى سيخنق عاصمة الرشيد لاسيما وأن معلومات مؤكدة بلغته تشير إلى حشود هائلة يقودها القائد الفذ كتبغا تمركزت فى منطقة الجنوب الشرقى لبغداد ليتذكر القائد العربى أن الأمر بات خطيرا وأن هزيمة ثقيلة ومدوية تنتظر بلاده لكنه اندفع صوب ميدان المعركة رغم إدراكه لخلخلة قواته وضخامة وتماسك قوات الجيش التتارى.

فى صباح التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦ اتجه مجاهد الدين أيبك على رأس قواته عند منطقة تسمى الأنبار للاشتباك مع العدو ولأن الحرب ترتكز على

الخدعة والدهاء فقد تظاهر القائد العبقرى بيجو بالتراجع إلى الوراء تجنبا لملاقاة جيش العباسيين وذلك لاستدراج قوات مجاهد الدين وسحبها وراءه إلى منطقة حافلة بالبحيرات والمستنقعات القريبة من شاطئ نهر الفرات ثم سرعان ما طوق القوات العباسية التى باغتها سيوف وسهام ورماح التتار النارية تنهال عليها من كل جانب ليشهد جيش العباسيين أول مذبحة جماعية على يد التتار.

وأمام سيول الدم المتدفقة وصرخات الجنود الجرحى قرر القائد المسكين مجاهد الدين أيبك سحب قواته المتبقية للوراء قاصدا بغداد.

* * *

بعد أن انسحبت القوات العباسية إلى بغداد تلقى القائد بيجو أمراً أصدره هولاكو يقضى بالتوجه إلى بغداد لتوظيف هزيمة الجيش العباسى لصالح التتار ومن ثم كانت حوافر خيل القائد بيجو تدق أراضى الجهة الشمالية لبغداد ثم سرعان ما انتقل وفق الخطة إلى جهة الغرب لإحكام الحصار حول العاصمة التاريخية.

الشاهد أن القائد العباسى عاد حسير الرأس كسير الخاطر يعض على نواجده كارها ما آلت إليه أوضاع الإمبراطورية التى كانت تخلع القلوب بعد أن شابت ووهنت واستكانت.

وراح القائد مجاهد الدين أيبك يقص على مسامع الخليفة ما جرى لقواته وما قام به التتار من فنون قتالية أذهلت جيش المسلمين حيث لاحظ براعتهم وسرعتهم وعبقريتهم فحتى بدا التتار لجيوش الخلافة كالجن والأبالسة والعفاريت كان الخليفة ينصت باهتمام بالغ لرواية القائد الذى يتحسر على ما جرى لقواته ويخشى مما سوف تتعرض له بلاده فى الأيام القادمة ولاذ الخليفة المعتصم بالله بالصمت بعد أن علت

الدهشة ملامحه وامتلئ بالحزن قلبه وهو يغمغم كأنه يندم على ما فاته ويتحسر على ملكه الذى أوشك على السقوط المروع فى مستنقع التتار وأمام الحكايات المروعة والمشينة التى رواها القائد العسكرى راح الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمى يعرض على الخليفة الإذعان والاستسلام بدلا من الصدام مع من لا يرحم.

ورغم أن الخليفة المعتصم بالله لم تكن نفسه تطيب لهذا العرض لكنه اضطر إلى قبوله لعله ينجو وخلافته من جحيم مستعر!! وراح الخليفة العباسى يبحث الأمر من كافة جوانبه حتى يتمكن من إعلان موقفه قبل أن يتخذ قرار رسميا قد يصيب أركان الخلافة فى مقتل.

وحين اتخذ الخليفة قراره الرامى إلى إجراء مفاوضات جادة مع التتار عبر وساطة يتولى القيام بها الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمى الشيعى تلقى طلبا منه ينشده الموافقة على اصطحابه البطريرك (ماكيكا) الذى كان هو الآخر يتصل سراً بالمغول بهدف تصفيه الخلافة العباسية.

ولأن الخليفة لم يكن قادراً على تدبير أمره فقد نزل على رغبة (مؤيد الدين) ومن ثم انطلق الرجلان صوب مقر السفاح هولاكو بحجة صياغة اتفاق يقضى بنزع فتيل الأزمة بين الجيشين فيما كانت الحقائق تتجلى وراء الأكمة حول دور الرجلين المشبوهين.

وجرت المفاوضات الوهمية بين الوفدين حتى أسفرت في نهايتها بعد العديد من الجولات عن شروط فرضها التتار حال قبول الخليفة اتفاق سلام بين الجانبين.

كانت الشروط قاسية ومجحفة تكررت بعد ذلك بين العرب والأوربين واليهود عند عقد اتفاقيات صلح ومعاهدات سلام وكأن التاريخ يتكرر بحذافيره وبنصوصه.

المهم أن هولاكو راح يشترط على الخليفة العباسى أن تتوج العلاقة بين الجيشين بمعاهدة سلام تعقبها إقامة حفل زواج ابنة هولاكو من ابن الخليفة العباسى المستعصم وعلى أن يبقى المستعصم بالله خليفة على المسلمين!!!

لكن فى المقابل كانت هناك مطالب أخرى تعرقل إتمام تلك الرغبات التى تطلع إليها هولاكو حيث شدد فى مفاوضاته مع مؤيد الدين العلقمى والبطريرك البغدادى على أن يقوم الخليفة بتسريح قوات جيشه بعد تسليم الأسلحة للتتار وردم الخنادق وهدم الحصون كإشارات جلية على نوايا العباسين الذين ستدار مملكتهم وفق المعاهدة تحت عيون التتار!!!

* * *

مقتل الخليفة... رفسا بالأقدام!!!

ظل الخليفة يتأمل ويتدبر ما الذى سيصنعه إزاء تلك المعاهدة المجحفة وما السبيل إلى من ينتشله من هذا المستنقع الرهيب..؟

أواه يابغداد.. آه يا عاصمة المنصور.. آه يا عاصمة الخلافة وا مصيبتا وا حسرتاه....

لقد تقطعت بالخليفة السبل ولم يعد يدرى ما الذى يجرى من حوله وظل على حاله شارداً حائراً ذاهلاً شاخصا بصره نحو الأرض حتى انهالت عليه حمم التتار المحمولة على سهامهم وأحزمت النيران فى حصونها وقلاعها ودورها.

ولم يسلم مقر الخليفة من سهامهم النارية بل إنها قد انهمرت كالمطر على فراشه حتى استبد به الخوف وأدرك أن الموت قادم لا محالة وأن الأمر لم يعد بيده وأن العمر قد نفذ خلسة..

كانت أوامر الجيش التتارى قد صدرت له باجتياح بغداد وحرق ما بها وما عليها وهو الأمر الذى دفع الخليفة مهرولا نحو وزيره الخائن مؤيد الدين العلقمى الاستفسار منه عما ينبغى القيام به وراح الوزير الخائن يشير عليه بالذهاب إلى مقر القائد المغولى هولاكو لتفعيل بنود وشروط الاتفاق الذى حمله إليه ولم يبت فى أمره لعل هولاكو يتراجع عن قراره العنيف.

وحين علم هولاكو بما يعتزم الخليفة القيام به اشترط أن يصطحب معه وجهاء وعلية القوم حتى يتسنى لهم متابعة الاتفاق بينهما وأذعن الخليفة المطالب هولاكو ورافقه نحو مائة من أعيان وعلماء ووجهاء وعظماء بغداد ومضوا من حوله حتى خيمة هولاكو.

وقبل أن يقترب الخليفة ومن معه من خيمة هولاكو أوقف الحرس بأمر من هولاكو نحو ثمانين رجلا بحجة أنه لا ينبغي دخول كل هذا العدد على القائد العظيم هولاكو..

وبالطبع كان الخليفة على رأس عشرين رجلاً استقبلهم هولاكو استقبالا فاتراً وباردا ألقى الرعب في قلوب الخليفة ومن معه لاسيما وأن المقابلة الجافة واكبت صيحات وصرخات وآهات بقية الوفد الذى منعه حرس هولاكو من الدخول حيث بدأت أعمال القتل والذبح وعلى نفس النهج المعروف بالغدر والخيانة التى كان يتحلى بهما جنكيز خان!! لكن ماذا عن مصير الخليفة؟! هل سيلحق بمن غدر بهم هولاكو أم سيبقى ذليلا مهينا على قيد الحياة يتجرع كؤوس الذل والهوان على ما جرى له ولشعبه ولبلاده وللخلافة التى ورثها كابراً عن كابر ولم يحافظ عليها كما حافظ أجداده وآبائه من قبل؟!

لقد أراد السفاح هولاكو إذلال العالم الإسلامى عبر خليفته الذى وجد نفسه محاطا بحرس هولاكو الذين قيدوه فى أغلالهم وحين ناشد هولاكو أن يطلق سراحه نظير ما يريد ويبتغى وافق الأخير شريطة تسليم الأسلحة والمجاهدين الذين سولت لهمن أنفسهم محاربة التتار تحت قيادة القائد المسكين مجاهد الدين أيبك!!

بالطبع وافقه الخليفة على تسليم المجاهدين الأبطال نظير أن يفدى نفسه شأنه شأن السلطان محمد فلم يكن كلاهما يعبأ بشعبه أو بجيشه حيث كان شاغلهما الوحيد هو النجاة بأنفسهما ولو كان ذلك على حساب الشعوب الإسلامية!!

وحين أطاع الخليفة واستجاب لمطالب هولاكو راح الأخير يبتكر شروطا أخرى إمعانا فى إذلال الخليفة وشعوبه الإسلامية ولو كان خليفة المسلمين قد أبلى بلاء حسنا وجاهد وناضل وقاتل فى سبيل الله أعداء الإسلام والمسلمين لتغيرت معالم الكرة الأرضية وتبدلت أحوالها إلى النقيض لو كان ذلك كذلك ما تجاسر هولاكو

على أن يفرض شروطا أخرى وقيوداً لا نظير لها بيد أن الخليفة قد أراد أن يفتدى نفسه ولتذهب الشعوب الإسلامية إلى الجحيم.

على أية حال راح هولاكو يشترط استدعاء المقاتل مجاهد الدين أيبك والإمام العظيم العلامة الشيخ محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى الذى استشهد ذبيحا بعد أن رأى بعينه ذبح أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم وشيخ شيوخ دولة الخلافة صدر الدين على ولم تقف المهازل والفواجع المغولية عند هذا الحد بل أن هولاكو السفاح أمر باقتياد جميع أئمة المساجد وخطبائهم لذبحهم نهارا جهارا حتى يضمن إن الدعوة للجهاد من خلال العلماء قد ولت إلى غير رجعة!!!

ولأن الخليفة المستعصم بالله قد استعصم بالدنيا وأبى لقاء الآخرة فقد عجل الله له لقائها مقتولا كما أرادها ولو تطلع إلى لقائها شهيدا لنالها.

لكن قبل أن يلقى جزاء ما اقترفه فى حق دينه وشعبه وبلاده باغته هولاكو الرهيب بقتل ولديه (أحمد أبو العباس) و (عبد الرحمن أبو الفضائل) أمام عينيه وسط جموع الشعب ثم وقع ابنه مبارك أبو المناقب فى أغلال التتار!!

وبلغ الاستهزاء بالخليفة والخلافة بأن وقعت أخواته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم فى قيود التتار!!

أما الأمر الذى يثير حفيظة قراء التاريخ وسيره لاسيما فى تلك المرحلة المظلمة السوداء أن يبقى الخليفة ومن خوله على خنوعهم وخضوعهم ولا يخرج من بينهم رجل رشيد يدعوهم إلى الجهاد والاستشهاد فى سبيل الله بدلا من ميتة الكلاب التى نالوها واستحسنوها!!

ولأن الخنوع والركوع كان من أبرز معالم أهل بغداد فى تلك اللحظات الرهيبة فقد أصدر هولاكو أوامره إلى جنوده للبدء فى ذبح جميع أهالى بغداد دون رحمة

أو شفقة أوهوادة وانطلقت سيوف التتار تلمع فى الهواء الطلق تبحث عن الرقاب كى تشفى غليلها من الإسلام والمسلمين وسقطت الرؤوس وتدفقت فيضانات الدم وأمطرت العيون بالدموع وعلت الصيحات وهزت صرخات النسوة والأطفال أرجاء المدينة التى سبحت فى بحر من الدماء الساخنة.

كان التتار يذبحون الأهالى كما لو كانوا صيدا سمينا حان التهامه ولم يكن هناك مخرجا أو منفذا لأهالى بغداد حيث كانت المدينة محاصرة من كافة الجهات ومن ثم كان الاستسلام هو السبيل الأوحد والذبح هو المصير المحتوم!!

كان أهالى المدينة يشبهون فى هروبهم من التتار داخل ديارهم الطيور الداجنة التى تهرب داخل حظيرتها لعلها تنجو من الذبح ولم تشفع صرخات وترسلات النساء ولا بكائيات الأطفال ولا حتى نحيب الشيوخ بل كان التتار كعادتهم يطربون لهذه الأهازيج والترانيم الحزينة والصور المفجعة والمؤلمة. سقطت عاصمة الخلافة بعد أن وقع الخليفة وها هى أعمدة الدخان تملأ سماء بغداد تناثرت جثث القتلى تغطى الأرض حتى كانت حوافر الخيل التتارى تغرس بحدوتها فى جلودهما وتكسر عظامهم فلم يكن هناك مفر من اتخاذها طريقا لتعقب من لاذ بالفرار إلى أطراف المدينة!!!

سقطت بغداد التى كانت قلعة العالم الإسلامى وحصنه المنيع وها هى جيوش التتار تعيث فيها فسادا واغتصابا وإرهابا وخرابا سقط مليون مسلم أكلت الغربان لحومهم ونهشت النسور الجارحة جلودهم وتصارعت الكلاب وهرولت على عظامهم ففاحت الرائحة العفنة فى أجواء المدينة فانتشرت الأمراض وتفشت الأوبئة والخليفة المكبل بأغلال التتار ينتظر الموت بين ساعة وأخرى راجيا أن يهرول الموت إليه قبل أن يموت كمداً من الحسرة.

* * *

مقتل الخليفة

لو أن الخليفة قد مـات مقتولا بالسيف لهان الأمر . . لو أنه مـات مصروعا بينهم أو محسوراً فى قلبه لكان موته محموداً أما أن يموت رفساً بالأقدام تلبية لأمر القائد الرهيب هولاكو فما أبشعها من موته!!

لقد كـانت موتتـه مهـينة وذليلة كمـا لو كان لص بغـداد حيث حـرصت أقدام أجلاف التتـار أن تنقض على جسد الخليفـة الذى خر مغشيـا عليه فنزف الدم من جوفه بعد أن فـاض الدمع من عينيه وسط ضحكات الطغاه وقفشـاتهم وسخريتهم واستهزائهم به.

كان المسكين رحمه الله وغفر له يصرخ بأعلى صوته وهو يتوجع ويتأوه ويتعذب حتى جـحظت عيناه وفاضت روحـه إلى بارئها فى قلب عـاصمة المنصـور قبل أن تغرب شمس الرابع عشر من صفر عـام ٦٥٦ الذى قد أقبل بكوارثه ومصائبه على الخلافه الإسلامية.

* * *

ما أشبه الليلة بالبارحة

إذا كان هولاكو قد أشار إلى احتلال بغداد من أجل إنهاء ظلم الخليفة واستبداده فقد تزرع من بعده الرئيس جورج بوش بنفس الحجة التى راح ضحيتها الملايين!!

لكن المثير للدهشة واللافت للانتباه أن صدام حسين كان قد تعرض لنفس مصير الخليفة المستعصم بالله حتى بدا وكأنه فيلم سينمائى يتكرر بصوره وبمشاهده مع اختلاف الأبطال والضحايا وأسلحة الدمار..

فى بادئ الغزو أصر بوش على تسليم صدام حسين كافة الخرائط والمواقع النووية وقد اضطر صدام حسين للرضوخ إلى مطالب جورج بوش بعد أن أوشكت القوات الأمريكية على دخول بغداد.

لاحظ أن صدام حسين كان قد زعم كالخليفة المعتصم أن بغداد مدينة محصنة لا يستطيع كائن من كان اجتياحها ولكن حصل بها ولها ما حصل فى زمن الخليفة المستعصم بالله.

لكن بدلا من أن يتفاوض صدام حسين مباشرة مع الرئيس جورج بوش أو من ينوب عنه كما أراد الخليفة المستعصم لاذ صدام حسين بالهرب بعيدا عن عيون الأمريكيين تاركا بغداد تحترق من جراء الصواريخ والقنابل الحارقة التى انهمرت عليها كالسيل الرهيب ظنا منه أنه يستطيع من مخبئه إدارة المقاومة وكبح جماح المحتل.

لكن أمريكا قررت عقب دخولها تعقب جميع علماء العراق ولاسيما الذين تخصصوا وبرعوا فى مجالات الطاقة النووية لإجهاض طموح الشعب العراقى فى

تدشين محطة نووية على غرار إصرار هولاكـو على ذبح علماء بغداد لكسر شوكة الأمة واندثار الدعوة للجهاد إلى الأبد!!

تعرضت بغداد لحـريق هائل ومذابح ومجازر بشـرية راح ضحيتهـا نحو مليون شهيد أمام صدام حسين رحمه الله فقد انتهى هو أيضا نهاية مأساوية بشعة لا تليق به وتتشابه إلى حد كبير مع الخليفة المستعصم حيث أعدم صدام حسين شنقا ثم راح غلاة المذهب الشيـعى الذين أعدموه يركلون جثـته بالأقدام وسط صيحـات شماتة وسخرية واستهزاء أعادت للأذهان ما جرى للخليفة المسكين.

أما مأساة صدام حسين التى كانت نموذجاً مكرراً من مأساة المستعصم بالله فقد تمثلت فى تشتـيت الأسرة الصداميـة حيث لاذت زوجته وبناته بالفـرار إلى حيث لا يدرى ولا يعرف إلى أين وبصحـبة من؟ وأما ولديه عدى وقصى فـقد لقيا حتفـهما قبل أن يلقى صدام حسين حتفه مشنوقاً مرفوسا ركلا بأقدام الحمير الوحشيين.

* * *

مكتبة بغداد

تعرضت مكتبة بـغداد الشهيرة العظيمة بأمـر من الجاهل هولاكو لأفظع وأبشع عملية سلب ونهب وحرق وتدميـر لأندر وأعظم المجلدات وأروع المؤلفات العلمية والأدبية والفقهية والشرعية والرياضية والفلكيـة والتاريخية والجغرافيا والطبية والفزيائية والتى جاوزت حينئذ نحـو ثلاثة ملايين كتاب بالطبع كانت مكتبـة بغداد هى المكتبة الأم لمكتبـات العالم بأسره حـيث كانت مكتبـة بغداد درة الثقـافة والعلوم والأداب والفنون بيد أن جهلاء التـتار الحمقى قد ضاقت صدورهم بـهذا النبوغ العربى ومن ثم وجب تصفيـته لكى يسود الجهل أرجاء الدنيـا على يديهم وقد حملوا المجلدات طوال عشـرة أيام وألقوابها مهـللين فرحين فى قاع نـهر دجلة حتى قيل إن جـسراً صلبا من المجلدات قد شد على نهر دجلة فأمكن للخيول المرور عليه فى أمان من كثرتها.

وكمـا سبق أن أشرنا فـالتاريخ يعود سـيرته حتى فى هذا المضـمار وما ارتكبـته القوات الأمـريكية عبـر عملائها فـى بغداد غير بعـيد عن الأذهان فقـد صدرت الأوامر إلى بعض المرتزقـة لنهب وسرقة المخطوطات النادرة والثـمينة والتاريخـية فى المتحف الوطـن العراقى حتى أن مـديرة المتحف صـرخت تناشد منظمة الـيونسكو سرعة التدخل لوقف هذا النهب الخطير بيد أن السيف قد سبقه العذل.

كان المتحف الوطنى يضم فى قاعاته التاريخيـة أقدم الحفريات المنقوشات الجدارية والمخطوطات النادرة التى يزخـر بها العـراق دولة الحضـارات القديـمة كالأشـورية والبابليـة وهو ما أثار حفـيظة الإدارة الأمريكية التى حـرصت على تصفيـة التاريخ العراقى وحـضارته لاحظ أن الأمـريكان شأنهم أيضـا شأن التـتار ظهـروا بصورة مفاجئة كالسحاب سرعان ما تبخر بعد أن أرعد وأبرق وأمطر وإذا كان التتار شراذم

متفرقة من القبائل المختلفة فالأمريكان شعب تجمع من شتى أرجاء المعمورة وإذا كان التتار قد ابتكروا عقيدة كانت خليطا من كل الحقائق والثقافات فالأمريكان قد خلطوا اليهودية بالمسيحية وإلههم هو الدولار كما كان جنكيز خان هو إله التتار.

ينبغى أن ندرك دون عناء أن بغداد كانت فى الماضى وستبقى فى الحاضر تدفع ثمنا باهظا لعراقتها وحضارتها وأصالتها وتاريخها من على يد الذين نتنوا فى الأحراش والكهوف كالذئاب كالأفاعى كالكلاب لقد امتلئت صدورهم بالغل والحقد والكراهية من جذورهم الهشة وأصولهم الوضيعة وتاريخهم ذى البياض الناصع وذاكراتهم التى هى أقرب إلى ذاكرة الدجاج فهم أمة بلا تاريخ بلا حضارة ومن ثم بلا ذاكرة!!

إذن لا مجال هنا للدهشة والاستغراب إذا لجأ التتار الهمج إلى حرق أضخم وأعظم مكتبة فى تاريخ الأمم على الإطلاق لا غرابة أن يحمل الجهلاء كنوزها ودررها الثمينة التى لا تقدر بمال فى قاع نهر دجلة فمثل هؤلاء لا تروق لهم الكتابة كما لا تطيب لهم أدوات المعرفة والثقافة والعلوم والفنون.

هؤلاء أصبح لا هم لهم سوى السلب والنهب والذبح والسلخ والاغتصاب وانتهاك الحرمات فكيف لمن كان على هذه الشاكلة أن يبالى بما ورد فى داخل هذه المجلدات والمخطوطات وكيف لمن لا حضارة له أن يحرص على تبجيل وتعظيم وتوقير حضارة الآخرين؟!

وهكذا عاد التاريخ إلينا بمأسيه وصوره الدامية ومشاهده المؤلمة وليته يعود أدراجه بأمجاده وبطولاته ومآثره وبصماته.

لكن على أية حال سوف تعود بغداد إلى سابق عهدها وإن طال الزمن بعد أن تنقشع عنها غمامة الأعداء وتزول عن صدرها قبضة العملاء لتعود كما كانت درة العالم الاسلامى وتاجه الذهبى.

أما أغـرب ما فى دروس التـاريخ لمن أراد أن يتعظ ويعـتبر هو تنصـيب الوزير الخائن مؤيد الدين العلقمى حاكما على البلاد بموجب مرسوم أصدره القائد السفاح هولاكو نظير خيانته للخليفة وللأمة والخلافة!!

أما وجه الغرابة أن يتكرر هذا المشهد بحـذافيره مع من استدعوا قوات الولايات المتحدة الأمريكية حيث أصدر بوش بتنـصيب إياد علاوى رئيسا لوزراء العراق بقرار من الحاكم العـسكرى بول بريمر نائب الرئيس جورج بوش الابـن إلى جانب إسناد العديد من المناصب لمن كانوا مع إياد كلاوى فى خندق الغدر والخيانة!!!

على أية حال سقطت بغداد وتحولت إلى كومة من الرماد حيث تساوى عاليها مع سافلهـا ويابسها بأخضـرها وليلها بنهارها ودماء ودمـوع أهاليها بمياه نهـريها دجلة والفرات وراح أكثر من مليـون قتيل وأضعافهم من الجرحى كـان القتلى فى حاجة لمن يدفنهم والجرحى يتلهفون على من يداويهم ومن لاذوا بالفرار أو الاختباء كانوا فى حاجة لمن يأويهم ويطعمهم ويسقيهم..

وأمام تلك المأسـاة المروعة أصدر هولاكـو فرمانا سـاديا يدعو جمـيع الهاربين والناجين بالـعودة إلى ديارهم لمدفن موتاهم ومـداواة جرحاهـم حتى لا يستـفحل خطر تناثر تلك الجثث التى تعفنت وباتت مصدراً للأمراض والأوبئة.

لم يكن هولاكـو رقيق الـقلب عذب المشـاعر أو أن شـعـوره بالندم على تلك المذبحة قـد وخزه بل كان فى ذلك يحـرص على صحة جنوده المراقـبين على بعد أمتار من هذه الجثث ومن ثم أضحى الطـاعون أقرب إليهم من حبل الوريد إذا لم يتحـرك أهالى بغداد لدفن هذه الجـثث التى عجـز أهل بغداد عن بناء مـقابر لهم فألقوا بجثثهم بعد الصلاة عليـهم فى رمال الصحراء التى احتضنت هؤلاء المساكين من النساء والرجال والشيوخ والرضع!!!

* * *

الفصل الثانى عشر
الطريق إلى دمشق

بعد أن انفـرط عقد درة العـالم الإسلامى وأضحـت بغداد هرما شـيد وارتفع بعظام أهلها لم تكن دمشق تلك التى كانت فى زمان مـضى وتولى عاصمة الخلافة الأموية والتى تفـخر بتاريخهـا وإمبراطوريتهـا التى نشرت العدل والرحمـة والمساواة ودين الحب والإخاء والتى لاتزال تبـاهى الدنيا بخليفتـها عمر بن عبـد العزيز الذى ملأ الأرض عدلاً وخيراً وكان هولاكـو يتطلع إلى دمشق وانكب على نفسه يدرس أوضاعها وكيفية اجتياحها حتى تنضوى تحت راية التتار.

كانت وفـود الأناضول والشام قد بايعت هـولاكو سيداً على العـالم حيث راح الأمراء يتسـارعون ويتبارون فى كسب رضا هـولاكو فالأمير الناصر يوسف حـفيد البطل الناصر صلاح الدين كان على رأس الذين هتفوا وبايـعوا ونافقوا وتزلفوا وقد لحق به الأميـر بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل والأمـير الأشرف الأيوبى أميـر حمص كمـا كان الأميـر كيكاوس الثانى والأمـير قلج أرسلان حكام وسط وغـرب منطقة الأناضول لا يتباطأ أى منهم فى موكب النفاق.

كان موكب النفاق قد تخلف عنه الأمير الباسل الكامل محمد الأيوبى الذى كان يحكم إمارة منطقـة ميافارقين الواقـعة فى شرق تركيا وتطـل على بحيرة «وان» من الناحية الغربية.

والواقع أن الأمير الكامل محمد الأيوبى كان قد بسط نفوذه على مناطق الشمال العربى من العراق والشمـال الشرقى من سوريا كما أنه قد سـيطر على شرق تركيا ومنطقة الجزيرة التى كانت واقعة بين نهرى دجلة والفرات من الناحية الشمالية.

إذن كانت المناطق التى يسيطر عليها الأمير الأيوبى خطيرة ومؤثرة واستراتيجية وهو ما دفع هولاكو للاستفسار عن عدم مجئ حاكمها على درب أصدقائه من حكام الشام والأناضول وراح البعض يتطوع قائلا مجيبا على هواجسه بأن الأمير الكامل الأيوبى تجتاحه مشاعر جياشة يملؤها الحزن والأسى والألم والقهر والحسرة على من سقطوا قتلى وجرحى بسيوف التتار وأنه أرغى وأزبد وهاج وماج على منابر بلاده مندداً ومستنكرا ومحذرا ومتوعداً لمن تسول له نفسه أن يقترب من مناطق نفوذه.

أكد الذين على يقين من شخصية الكامل أنه لن يلبث أن يكون مجرد تابع أو خائن أو عميل وأنه ممن لا تروق لهم لعبة النفاق حيث لا يجيد أداءه والعزف على أوتاره والرقص على طبوله.

كان هولاكو ينصت باهتمام ودهشة لمن يقص له مآثر ومناقب الأمير الكامل وهو يضرب كفا بكف صائحا كيف يجرؤ هذا الرجل أن يبدى سخطه وامتعاضه وتذمره من سياستنا ألا يعرف من نحن من نكون وما الذى يمكن أن نصنعه به وببلاده؟!

وعلى الفور كان رسولاً قد امتطى ظهر جواد أبيض اللون ضخم الجثة يتجه إلى مقر الأمير الكامل حاملا معه انذاراً شديد اللهجة يا سبحان الله ألم نقل مرارا وتكراراً أن التاريخ يعود ليطل علينا بوجهه الكئيب لتكرر مآسيه ومصائبه وفواجعه.

وللتأكيد على ذلك أسوق هذا النموذج الذى يتشابه إلى حد كبير مع ما جرى بين هولاكو والأمير الكامل الأيوبى!!

بعد أن سقطت بغداد على يد هولاكو الجديد (جورج بوش الابن) أرسل فى التو وزير خارجيته كولن باول إلى دمشق للقاء الرئيس السورى بشار الأسد حاملا معه رسالة تنطوى على توجيهات وتحذيرات شديدة اللهجة حيث اعتمد بوش الابن

على الانتصار الساحق الذى أحرزه على العراق ومن ثم بات على بعد أمتار من الحدود السورية الملاصقة للعراق كان كولن باول مختالا فخوراً بانتصار بلاده حيث كان حادا وعنيفا ومباشراً وهو يملى شروطه على الرئيس بشار الأسد الذى أدرك أن المخاطر باتت تحيق ببلاده من كل جانب.

كانت هناك تصريحات نارية وعنيفة قد سبقت رحلة كولن بول إلى دمشق حيث إنَّ باول نفسه أكد لوسائل الإعلام وهو فى طريقه إلى المطار بأن على سوريا أن تنصاع للواقع الجديد!! فيما راحت كونداليزا رايس التى كانت تشغل منصب مستشار الرئيس الأمريكى للأمن القومى تقول: إن سوريا ينبغى أن تتعلم من درس العراق وما جرى له وأن العناد سوف يجلب لدمشق المتاعب والصعوبات!!

أما الشروط القاسية التى فرضها باول الذى سلمها للرئيس السورى وهو يضع ساقا على ساق فى استعلاء وزهو وكبرياء قد تمثلت فى:

١ - سرعة انسحاب الجيش السورى من لبنان.

٢ - طرد جميع قيادات المنظمات الإسلامية الفلسطينية.

٣ - وقف كافة أشكال الدعم لحزب الله المرابط فى الجنوب اللبنانى.

٤ - تجميد العلاقة القوية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

٥ - تقديم كافة المساعدات للقوات الأمريكية المتمركزة فى العراق لترسيخ قواعد الأمن وتكريس السلام.

٦ - ضرورة التوصل إلى سلام منفرد مع إسرائيل دون أية تعقيدات من شأنها عرقلة أى اتفاق يمكن التفاهم حوله.

٧ - منع تسلل المجاهدين العرب إلى بغداد حرصا على سلامة الجنود الأمريكيين.

وما من شك أن بعضا من هذه المطالب قد تمت تلبيتها وتنفيذها على وجه السرعة لاسيما انسحاب الجيش السورى من لبنان عقب اغتيال الرئيس رفيق الحريرى فيما تجاهلت سوريا بقية المطالب بعد أن تولت المقاومة العراقية بتهديد القوات الأمريكية من خلال ضربات قوية وعنيفة أدت إلى تراجع المشروع الأمريكى الخطير وتقليص نفوذه وانكفائه فى البحث عن مخرج للخروج من هذا المأزق.

* * *

الشاهد أنه بعد مرور أكثر من مائة يوم قرر هولاكو اجتياح الشام وقد قرر إزاحة الكامل محمد الأيوبى من طريقه وقد كانت رسالته تقضى بالاستسلام غير المشروط وتسهيل مهام جيش التتار المتجه إلى الشام لإدارة شئونها.

كان الأمير الكامل قد تعاهد مع شعبه وجيش بلاده على الاستنفار والتصدى وإعلاء راية الجهاد والمقاومة لهؤلاء الهمج ولو كان الثمن هو الموت حيث إنه أشرف وأعز من الخنوع والركوع والاستسلام لمن عادوا الله ورسوله والمؤمنين.

* * *

قتل رسول هولاكو

فى قصره المنيف استقبل الأمير الأيوبى رسول هولاكو الذى كان يمشى بخطى الواثق المتكبر وفق توجيهات سيده ويبدو أن الأمير الأيوبى قد أعد العدة للإجهاز على هذا الرسول إمعانا منه فى تحديه الصارخ لهولاكو وعدم الإذعان لانذاره الذى حمله رسوله.

وحين علم هولاكو بنبأ مقتل رسوله على يد الأمير الأيوبى راح كمن أصابه مس من الجنون يضرب الأرض بقدميه وهويصرخ آه.. آه.. آه.. أهذا ممكن؟! أهذا صحيح؟! لماذا قتلوا رسولى؟! ألا يعرفون من أكون؟ هل غفلوا عن أننى أستطيع أن أصب عليهم جام غضبى فى التو؟! كيف تجاسر هذا الأحمق على ارتكاب هذا الجرم؟! أهو عاقل أم أنه مجنون؟! ألم يبلغه أحد عما صنعناه ببغداد؟!

أرادها حربا إذن هى حرب سيبكى عليها دماءً لا دموعا سيتوجع منها ما دام على قيد الحياة... سوف يكره اليوم الذى ولدته فيه أمه؟! سأجعله يجثو على ركبته ذليلاً أمامى كمن سبقه؟! الويل لك أيها الرجل الأحمق..

كان هولاكو يصيح بأعلى صوته قد ران الصمت على الجميع حيث راح قواده ينتظرون ماذا سيصنع إزاء هذا التصعيد الخطير والمفاجئ ويتساءلون سراً وهمساً عن التحدى الغريب الذى أبداه الأمير قائلين فى ذهول.. كيف؟ ولماذا؟

* * *

قام هولاكو بتدشين حملة عسكرية ضخمة تولى قيادتها ابنه «أشموط بن هولاكو» الذى انطلق إلى مدينة ميافارقين مقر إمارة الأمير الكامل الذى احتشد على رأس قواته داخل إحدى القلاع الحصينة والمتينة لدحر هجمات التتار.

كانت خطة هولاكو تعتمد على فرض حصار شديد على المدينة بأكملها وقد ضاعف من خطورة الأمر التخلى العربى عن نصرة جيش الأمير الأيوبى حيث رفض الناصر يوسف حفيد صلاح الدين إمداد الأيوبى بأية مساعدات أو معونات لتخفيف حدة الحصار المفروض وضاعف من قوة التتار وبأسهم انضمام قوات الناصر يوسف إلى قوات التتار لدعمها فى حصار جيش الأيوبى!! لم تكن الأحوال قد بلغت حتى الآن ذروة المأساة بل كان الأمير الأيوبى منعما بالأمل متسلحا بالإيمان بالله متوكأ على سلاح الجهاد وطلب الشهادة فى سبيل الله . . .

لكن بدأت الأوضاع تزداد سوءاً وضعفا بين قواته كلما مضت الأيام وسط الحصار الرهيب الذى انضمت إليه جيوش مملكتى الكرج وأرمينيا لتصبح المدينة تحت الحصار من الناحية الشرقية.

أضف إلى ذلك المرارة التى أحس بها الأمير الكامل الأيوبى حين علموا أن العزيز بن الناصر يوسف يقف على رأس قواته ليفرض الحصار بنفسه!!

وطال أمد الحصار يوما بعد يوم وأسبوعا يعقبه أسبوع وشهراً يولد من رحم شهر حتى ظل الحصار المضروب على المدينة الباسلة ثمانية عشر شهراً أى خمسمائه وتسعة وأربعين يوما بالتمام والكمال.

لتسقط بعدها المدينة التى ثارت وصبرت ناضلت واستبسلت ولولا عناد الأصدقاء ما انتهى بها الحال على هذا النحو المشين لقد أصبحت المدينة الباسلة مفتوحة على مصراعيها لحوافر خيل التتار التى انطلقت كالإعصار تهدم وتدمر وتخرب وتحرق وتعصف بما يحول انطلاقها الرهيب.

سقطت قلعتها الحصينة وانتشر القتل والذبح والسلخ والسحل وكانت جحافل التتار كعادتها فى ربوعها تنهب وتسلب وتسرق وتغتصب.

كان هولاكو قد أمر ابنه بحرق المدينة على من فيها على ألا يمس الأمير الكامل الأيوبى قبل أن يراه أمامـه ذليلاً يتجرع مزارة الندم حـتى يشفى هولاكو غليله من هذا الذى سولت له نفسه ألا يخضع لسلطانه وألا يخضع لنفوذه.

* * *

استشهاد الأمير الأيوبى

كان على الأمير الأيوبى سداد فاتورة موقفه العظيم والمتاوئ لهولاكو الرافض للخضوع الكاره للاستسلام كمن سبقه من أشباه الرجال ومن ثم دارت الدائرة على من أبت نفسه وعصى أن يكون من الصاغرين المتخاذلين الخائنين.

وفى أغلاله اقتيد الأمير الكامل محمد الأيوبى إلى حيث يكون السفاح الطاغية هولاكو الذى راح يجذب لحيته بقسوة بالغة وهو يضحك ملء شدقيه ثم سرعان ما قام بنفسه بقطع أطراف جسده والبطل الأيوبى يرمقه بنظرات قاسية مصحوبة بآهات وصرخات تهز أرجاء المكان ثم بلغت الخسة أوجها حين أرغمه هولاكو على أن يأكل من لحم أطرافه التى قطعها بسيفه!!!

ظل الأمير الباسل المناضل يتلقى صنوفاً شتى من «ألوان متعددة من التعذيب الجسدى حتى وافته المنية وخرجت روحه إلى بارئها راضية مرضية على من أبى أن يكون من الخائنين التابعين.

لقد استبد الغضب بهولاكو وثارت نفسه لوفاة الأمير الأيوبى فقد أراد أن يتلذذ ويستمتع بتعذيبه حتى يبلغ أمره للعالم الإسلامى فلا يتجاسر من بعده أحد.

ثم أمر حراسه بقطع رأسه وفصلها عن جسده على أن يطوف بالرأس كافة المدن الخاضعة لنفوذ التتار حتى استقر بها المقام فى مدينة دمشق التى كانت قد سقطت على يد هولاكو فعلقت رأس الشهيد على باب الفراديس فترة من الزمن لتظل عبرة وعظة لمن أراد أن يكون من الجبناء ولمن تطلع إلى أن يصبح من الشهداء ثم بعدها انتقلت إلى أحد المساجد لتدفن بها وقد اشتهر هذا المسجد بأنه مسجد الرأس».

* * *

حلب المحتلة!!!

إذا كنا نردد الآن فى عـالمنا العربى المقـولة الشهيـرة أن الذى يتغطى بـالأمريكان عريان» فـقد انطبقت هذه العبـارة على من تغطى من قبل وتلحف بالتتـار حيث إنه كان عريان وبغير أمان!!!

وكان الناصـر يوسف الأيوبى حفيد البطل الـناصر العظيم صلاح الدين يتفـاخر بحميمية العلاقة التى تربطه بالقائد المغولى هولاكو دون أن يتفهم حقيقة تلك العلاقة التى لا ترتكز على ندية أو كفاءة بل تعتمد علـى خضوع وإذلال وإلا كان مصيرها كمـا سيتضح لنا فى السطور الـقادمة مسـتساغا وغـير مستـغرب لمن ثبت الله فى رؤوسهم العقل وفى عيونهم البصر وفى صدورهم البصيرة.

الحاصل أن النـاصر يوسف الذى أراد أن يتبـوأ مكانا له فى قلب القـائد هولاكو أرسل ابنه العـزيز على رأس قوات عسكرية ضـخمـة لتعزيز مـوقف التتـار وتقوية حـصارهم المضـروب على مديـنة (ميـافارقين) ظنا منـه أن ذلك قد يشـفع له عند هولاكو ويعزز أواصر العلاقة بينهما.

وفى خضم الحصـار المضروب على المدينة الباسلة أرسل الأميـر الناصر يوسف أمير حلب ودمشق خطابا مطولا إلى هولاكو حمله أبنه الـعزيز ورد فيه رغبة لناصر لدين العدو يوسف الأيوبى دعم التتار له فى حملته المرتقبة على مصر!

لقد أحس هولاكو أن الأمير يوسف الأيوبى قد جـاوز قدره وتخطى أعتاب هيبة هولاكو وقد حان الوقت لتأديبه وتهذيبه وتقزيمه حتى يتنبه لحقيقته ومكانته!!

كان هولاكو غاضبا من أن الأمير يوسف أرسل ابنه ولم يكلف نفسه عناء السفر لعرض رغـبته بنفسـه للقائد هولاكو وهو مـا وجب عقابه واحتـلال مناطق حكمه

لاسيما وأن دمشق وحلب يتطلع إليهما هولاكو وها هى اللحظة قد أقبلت والفرصة أتت على طبق من مـذهب لا ينبغى أن تمر من بين يديـه بل يجب اغتنامـها والآن دون إبطاء أو ترددا!!

وهكذا دارت الدائرة على الأمير يوسف الذى باع نفســه وولده وجيشه بأبخس الأثمان نظير إرضاء هولاكو دون أن يتعظ أو يتعـلم من سيرة ومسيرة جده العظيم الذى لايزال أمل الأمة المفقـود وحلمها الموعود وبطلها المنشـود الشاهد أن هولاكو أرسل خطابا للرد على ما طلبه الأمير يوسف أمير حلب ودمشق جاء فيه بالنص.

إن الذى يعلم به الملك الناصـر صاحب حلب أن قـد فتـحنا بغداد بسـيف الله تعالى وقتلنا فرسانها وهدمنا بنيانها وأسرنا سكانها كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤] واستحـضرنا خليفتـها وسألناه عن كلمات فكذب فـواقعه الندم واستوجب منا العدم وكان قد جمع ذخائر نفيسـة وكانت نفسه خسيسة فجمع المال ولم يعبأ بالرجـال وكان قد نمى ذكره وعظم قدره ونحن نعـوذ بالله من التمام والكمال.

إذا تم أمـــــر دنا نـقـــــصـــــه ... تـوقـع زوالاً إذا قـــــــيـل تم

إذا كنت فـى نعـــمـــة فـارعــهـا ... فــإن المعـــاصـى تزيـل النـعم

وكم من فـــتى بات فـى نعـــمـــة ... فـلم يـدر بالمـوت حـــتـى هجـم

إذا وقفت على كتابى هذا فسارع برجـالك وأموالك وفرسانك إلى طاعة سلطان الأرض (شاهنشاه روى زمين)[1] تأمن شره وتنل خيره كما قال الله تعالى فى كتابه العزيز ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ

---

(١) ملوك الملوك على وجه الأرض.

﴿الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٣٩ - ٤١] ولا تعوّقْ رسلنا عندك كما عوَّقت رسلنا من قبل فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان وقد بلغنا أن تجار الشام وغيرهم انهزموا بحريمهم إلى مصر فإن كانوا فى الجبال نسفناها وإن كانوا فى الأرض شققناها:

أين النجاة ولا مناص لهارب ولى البسيطان الندى والماء
ذلت لهيبتنا الأسود وأصبحت فى قبضتى الأمراء والوزراء

* * *

هذا هو نص الرسالة الخطية التى بعث بها هولاكو عبر أحد رسله وقد صاغها أحد رجال هولاكو من العرب الخائنين حيث استشهد بالآيات القرآنية والأبيات الشعرية التى يتعذر على هولاكو فهمها وإدراك معانيها وإلا كان من الموحدين وما أقسى ما جاء بها وكأن الله أراد أن يذل الأمير يوسف بعيداً من عبادة الشركين ويلقنه درساً فى القناعة والزهد وأهمية الحفاظ على النعم وضرورة الابتعاد عن المعاصى والآثام!!! صحيح ما استحق أن يولد من عاش لنفسه قط والأمير يوسف عاش لنفسه دون أن يعبأ وبشعبه وأمته.

باع أشقاءه المسلمين وحاصرهم ومنع عنهم الزاد والسلاح لعله يحظى بالقبول الهولاكى فعاد محسوراً مكسوراً حين أراد أن يلتهم مصر طمعا وجشعا ألقمه هولاكو بحجر لعله يسكت وينكمش وهكذا يجازى الجبناء الضعفاء ومن مضى على دربهم.

لكن الأمير يوسف الذى اشتهر بكراهيته للحرب وجبنه الشديد راح يعلن الجهاد وعزمه على محاربة التتار!!

وتكراراً للتاريخ فقد رفع صدام حسين راية الجهاد وهو الذى كان لا يكف عن مهاجمة جيرانه المسلمين وحين أعلنت الولايات المتحدة عزمها على الإطاحة به

أعلن الجهـاد حيث أمر باستبـدال علم العراق البعثى بآخر كتبت عليـه عبارة الله أكبر!! وهى نفس الخطوة التى اتخذها الأميـر يوسف حيث رفع راية الجهاد ورفرف علم بلاده الجديد بعبارة الله أكبر!!!

وجمـال عبد الناصـر حين كشـرت انجلترا عن أنيابـها راح يعتلى منبـر الجامع الأزهر زاعقا بأعلى صوته الله أكبـر.. الله أكبر!!! وحين وضعت الحرب أوزارها عادت الأحوال كما كانت لم يعد للدين موضع قدم فى قصر السلطان!!

نهايته.. انهـمك الأمير يوسف فى إعداد جـيش يستطيع ملاقاة التـتار حتى لا يفقد عرشه الذى بات على حافة السقوط وراح يبعث متوسلا مستغيثا مناشدا الملوك والأمراء لدعمـه ومؤازرته لعله ينجو من الإعصـار القادم ومن ثم أرسل إلى والى مصر يدعوه للانضمام إليه!!

كما أرسل إلى أمير منطقة شرق الـبحر الميت دون جدوى وحين أرسل إلى أمير الموصل لعله يفـيق من غفوته أدار بدر الـدين لؤلؤ ظهره وأشاح بوجـهه عنه ناجـيا بنفسـه من طوفان هولاكـو كما كـان يصنع الأميـر يوسف بل إن بدر الدين أبدى لهولاكو استعداده للانضمام إلى التتار لتأديب الأمير يوسف!! سبحان الله افعل ما شئت كما تدين تدان.

المهم انطلق جيش المغول من أمام قلعة القـائد هولاكو المشيدة فى مدينة همدان بفارس حيث إن القلعـة تطل نوافذها على شاطئ بحيرة أورمـية وعلى أبواب مدينة نصيبين وقفت جيـوش التتار تعيد تنظيم صفوفها وترتيب أوضاعهـا وتدشين خيامها للبدء فى فرض حصار شديد وعنيف على أسـوارها حتى يعلن أميرها الاستسلام دون شرط أو قيد.

ظل الحصار لكن كانت المفاجـأة المذهلة حين أعلن حاكم المدينة رغبة بلاده فى إعلان الاستسلام.

بعدها اتجه هولاكو ناحـية الغرب لإخضاع المدن الواقعة فى منطقة جنوب تركيا قاصـداً حلب لؤلؤ بلاد الشام بعد أن تمكن من اجـتياز مديـنة البصرة وعبـور نهر الفرات حتى بلغ أسوار مدينة حلب!!

وحين حطت الجيوش رحالها نصب كالعادة خيامها وألقت بظهورها على الأرض طلبا للراحـة بعد عام كـامل من السـفر الـطويل والشاق حيث أن هذه القـوات قد اجتـازت فى رحلتها جـبال مناطق غـرب إيران ثم اخترقت مـدينة أربيل العراقـية فالموصل ثم عبرت نهر دجلة وهكذا اجتاز عقبات وحواجز وموانع شديدة الخطورة على أمل أن يصل إلى حلب للبدء فى تدشين حملته الجبارة على بلاد الشام.

لكن يبقى الســؤال إذا كان هولاكو قـد استغرق نحـو عاما كامـلا فى الوصول بقواته الضخمة إلى حلب فهل استطاعت حلب ودمشق توظيف هذا الوقت الطويل لتجهـيز الجيش وتشييد القـلاع وترميم الحصون وتخزين المؤن لساعـة الصفر؟! هل قرر أمير حلب ودمشق أن يخطط لدحر حملة هولاكو من خلال خدعة إستراتيجية تعرقل أهداف التتار لاسيما وأن الحملة التتـارية عانت صعوبات وعقبات شاقة طوال رحلتهم!!

هل انتظر أهالى حلب ودمشق كـالعادة الضربة الأولى والأخيـرة أم تربصوا فى الليل للإيقاع بهولاكو وقواته؟!

بالطبع لم يخرج الأمـر كما كان مـعتاداً حـيث انتظر أهالى الشام عاما كـاملا هجوم التتار بقلوب كان الخوف قد فاض منها وبها والجبن قد تمدد وافترشها ومن ثم ظل الحال على ما هو عليه باستثناء تضخيم حالة الرعب التى سادت أجواء المدينة!!

على أية حال بدأ هولاكـو الذى تولى قيادة الحملة بنـفسه فرض حصـار شديد على المدينة وكأن أهالى حلب يجهلون ما سوف يلقونه على يد هولاكو الذى اعتاد على محـاصرة مدن أعدائه أو اجـتياحهـا فى تلك اللحظات الدقيقة والخطـيرة كان الأمير يوسف يرابط على رأس قواته فى مدينة دمشق البعيدة عن مدينة حلب بنحو ثلاثمائة كيلو متر ومن ثم أسند مهام القـيادة فى حلب إلى عمه الأمير (توران شاه) الذى كان قد أبلى بلاء حـسنا لولا أن أهالى المدينة قد روعتهم نبال وسـهام ورماح التتار التى تنهر عليهم وتتساقط كالشهب النارية لواصل الرجل نضاله حتى يلقى وجه ربه شهيدا.

وبعد اسبوع كامل دبت الانشقاقات والخلافات بين أهالى حلب وحاكمها (توران شاه) ولأن الغلبة كـانت للجبناء فقد انتـصر رأيهم وانطلقوا صوب أبواب مـدينتهم يفتحونها للتتار بعد أن رفعوا رايات الخزى والعار والاستسلام.

أمـا توران شاه فـقد اتخـذ من القلعـة قاعـدة للجـهاد مع بعض أنصـاره من المجاهدين الذين أصروا على النصر أو الشهادة أو بهما معاً.

وفتحت أبواب حلب للغزاة للطغاة لـلأفاعى للذئاب لمصاصى الدماء وأكلة لحوم البشر. هل أَتَحَدَّثُ للمرة المائة عما اقترفه هؤلاء الهمج فى حلب وهل أستعرض المفردات التى ضاق القلم بهـا ذرعا واستشعرت منه الملل فـأبيت أن أضجره. هل أصف ما سبق لى من وصف للمذابح والمجازر أم أن القارئ قد فهم ما يلى دخول التتار أية مدينة مسلمة؟!

إذن دعونا لا نذكر ما جرى من أهوال فى حلب ولـنتأمل ما صنعه هولاكو فى القلعة التى اعـتصم بها توران شـاه وأنصاره طوال ثلاثين يوما حـتى أبادها هولاكو وذبح كل من كان بداخلها وأبقى على توران شاه لعله يدفع ابن أخيه الأمير يوسف للاستـسلام والخنوع عندما يبلغ التتار أراضى دمشق.

* * *

استسلام حماة وحمص

بعد أن دانت الأمـور لهولاكو وبسط جناحيـه على شمال سوريا وجنوب تـركيا قرر عقد مـجلس حربه لاجتماع طارئ للتباحث بشـأن الوصول إلى دمشق لتأديب الأميـر الناصر يوسف الأيوبى وضم مناطق نفوذه وإخـضاعهـا لسلطان المغول وفى الاجتمـاع الطارئ استقـر الأمر على سرعة التـوجه إلى مدينتى حمـاة ثم حمص وبعدها تبدأ المعـركة الكبرى الفاصلة لاحتـلال دمشق درة الشام وعاصمـة الخلافة الأموية التى كـانت قد بسطت عـدلها ونفوذها فى أرجـاء المعمـورة قبل أن يوشك زمانها على أن يمضى بغير رجعة.

وفيـما مـضى هولاكو إلى مـدينة حلب وظن أن أهلهـا سوف يقاتـلونها بغـية الاستشـهاد أو النصر ثأراً لشهـداء المسلمين بيد أن وجـاء المدينة قد تسارعوا فـيما بينهم لإعلان الولاء والإذعان للسيـد هولاكو وامتعاضهم واشمـئزازهم من الأمير يوسف ومن ثم اسـتولى هولاكو على حـماة بغـير نصب ودانت له دون جـهد أو تعب.

وبينما كان هولاكـو على رأس جيشه فى طريقه إلى دمـشق استوقفتـه قافلة كان على رأسهـا حاكمهـا الخائن السفـيه الأمـيـر الأشرف الأيوبى لتسلم مـفاتيح المدينة لهولاكو وليبدى رغـبته فى انضمام جيش مدينة حمص عـلىَ اعتبار أن ذلك شرف سوف يزهو ويتفاخر به بين الناس مادام على قيد الحياة!!

وهكذا أصبـحت حماة وحمص ضـمن قواعد ومناطق نفوذ التـتار الذين ولوا سيوفهم وخيولهم شطر دمشق.

* * *

سقوط درة الشام
عام ٦٥٨ هجرية

قبل أن تقترب جحافل التتار من أبواب مدينة دمشق كان الناصر يوسف الذى بادر من قبل وأعلن الجهاد ورفع شعار الله أكبر على القلاع والأسوار قد قرر أن يلوذ بالهرب حتى ينجو بنفسه من الوقوع فى قبضة التتار.

لم يكن القرار مفاجئا بالنسبة لمجلس حربه أو حتى لقادة جيشه أو شعبه حيث عرف عن الناصر يوسف عشقه للحياة وتقديسه لزينتها وزخرفها ومن ثم كان مثار دهشة حين أعلن عزمه على مواجهة التتار واستعداده لمحاربتهم وهكذا مضى عام كامل والأمير يوسف لم يكن قد تأهب لتلك اللحظة المرتقبة لتسقط دمشق التى تحتضن قبر صلاح الدين الأيوبى ولو كانت الليلة أشبه بالبارحة ما تجاسر التتار على الاقتراب من دمشق وما جرؤ هولاكو على اجتياح بغداد لكن الأمير يوسف بدا كاللصوص الذين حملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه والهرب بعيداً عن العيون ليسقط عاصمة صلاح الدين!! كان أهل الصين يتندرون بمثل شعبى يقول إن أمام اللص ستة وثلاثين حلا فلا يختار منها سوى الحل الأخير وهو الفرار!!!

وبالطبع لم يكن الأمير يوسف بعيدا عن ذلك فقد سلب كنوز دمشق ونهب أموالها وفر هاربا لتسقط دمشق بعد أن تقدم وفد من كبرائها إلى هولاكو لتسليم مفاتيحها وإعلان ولائهم له وخضوعهم التام لنفوذه وسلطانه!! لتلحق عاصمة الخلافة الأموية بشقيقتها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ضمن أملاك وضياع ومناطق نفوذ التتار!!.

وهكذا أصبح هولاكو سيداً على تركيا والعراق وفارس والشام وكازاخستان وتركمنستان وأوزبكستان وأفغانستان وباكستان وأذربيجان.

* * *

سقوط فلسطين

كان هولاكو كمن اجتاحه الظمأ كلما ارتوى من ماء مالح كلما ازداد عطشا وهولاكو كلما أسقط مدينة أبصرت عيناه أخرى يتلهف عليها وينطلق نحوها كالمعتوه لا يرضى بما ملكته يداه وأخضعه سيفه وبال عليه خيله .

وهكذا قضى هولاكو حياته من حرب إلى أخرى فى سنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة حتى حار من أمره أساتذة التاريخ ورواته الشقة الذين أدمت قلوبهم المجازر والمذابح التى نصبها هولاكو للشعوب الإسلامية كما أدهشهم الخنوع والخضوع والركوع الذى هو أهم سمات العرب والمسلمين فى تلك الحقبة الكئيبة السوداء.

إذن إلى أين سيمضى خيل التتار وإلى أى قبلة سيولى هولاكو وجهه شطرها وإلى أى مدينة ستتدفق منها الدماء وتنهمر من مهاطلها الدموع ومن براكينها حمم الغضب.

إنها فلسطين التى أصابها الدور والدوار فسقطت على يد القائد المغولى كتبغا الذى اشتهر بوحشيته وقسوته ودمويته وغلظة طباعه وخشونتها.

سقطت نابلس ثم غزة ثم صيدا وسهل البقاع وصور وبيروت لتلحق فلسطين بمن سبقها من البلدان والممالك التي خضعت للتتار لتصبح جيوش التتار على بعد أمتار من جيوش الصيلبيين الذين يبسطون نفوذهم فى بعض مناطق سوريا ولبنان وفلسطين كما بانت على مرمى البصر من منطقة سيناء فهل أصبحت مصر هى الجائزة الكبرى التى سيتوج بعرشها هولاكو سيداً على العالم دون منازع؟!

* * *

الفصل الأخير
غروب شمس التتار

إذا كانت الأرض تعلوها السماء والليل بعقبة النهار والضيق يتعقبه الفرج والظلام يولد من رحمه الضيـاء فالغروب يتبع الشروق وما دامت شمس التـتار قد أشرقت على الدنيا وتوهجت وأرسلت على الكون أشعتها فهل حانت ساعة الغروب،

وأوشكت أمبراطـورايتها على المغيب أما أنـها ستخالف السنن الكونـية فى البدء تلقى هولاكو نبـأ وفاة شقيقـه الخاقان منكوخان حـاكم إمبراطورية التتـار وقد خلقه شقيقه «قوبيلاى» وكأن غياب منكو خان إشارة إلى أن زمن التتار قد أوشك أن يولى وربما جاءت مـعركة غزة تلك المدينة المتـاخمة للحدود المصـرية تدق هى الأخرى ناقوس الأمل للعالـم الإسلامى بأن النصر قادم لا محالة . .

كانت مـوقعـة غزة التى خاضـها القـائد ركن الدين بيبـرس فى صيف ١٢٦٠ ميلادية قد ألقت الرعب فى قلوب جند التتار الذين باغتهم جيش بيبرس ذاك القائد المحنك والمعروف بصلابته وشجاعته وعبقريته.

كان ركن الدين بيبرس قد اجتاحتـه عاصفة من الغضب حين لاذ الأمير يوسف الأيوبى بالفرار بعد أن ظن به ركن الدين بيبرس خيرا وأنه من المجاهدين.

ولأن ركن الدين بيبرس قد امتلئ صدره بالحقد والكراهية على جند التتار الذين أذلوا وأهانوا وذبحوا الشعوب الإسـلامية فقد اعتزم طرد التتـار وإلحاق الهزيمة بهم لوقف زحفهم وكف أذاهم والثأر لمن راح صريعا على أياديهم.

وفى إحدى ليـالى غزة اجتاحت قـوات بيبرس مضـارب التتار وانقضت عليـها فأجهزت على غالبية الجنود الذين كانوا بداخلهـا ليتجدد الأمل وتتوهج شمسه بعد أن عصف اليأس بالمسلمين وحطم إرادتهم.

غسلت غزة عار العـرب جميعا وإن لم تكن تكفى للثأر من للشـهداء والأحياء الذين جدع التـتار أنوفـهم وكسروا أعناقـهم لكن الثأر قادم والـنصر على الأبواب وسوف تصرع دياجير الظلام وستخترق أشعتها أرجاء المعمورة لتغرب أمامها شمس الظلم والطغيان والاستبداد ولتسقط ورقة التتار كما تسقط أوراق خريف سبتمبر .

* * *

معركة عين جالوت

كانت معـركة غزة كمـا سبق القول مقدمـة للانتصار السـاحق للمـسلمين على جحافل التـتار ومفتاح العـبور إلى التحرر من هؤلاء الأوغاد الهـمجيين لتبدأ حـقبة جديدة على يد مغاوير الإسلام وأشاوس الأمة العربية بعد ليل طويل ظن من عاش فى كنفه أنه سيبقى إلى الأبد بظلمه وظلامه.

كان سيف الدين قطز حاكم مصر يفطـن لخطورة التتار الذين اقتربوا على حدود مصر الشرقية واعيا للأطماع التى تجـتاح القائد هولاكو ومن ثم أدرك ببصيرة القائد الفذ أن الأمر لم يعد غير محمود وأن البدء فى مجابهة التتار بات ضروريا.

إذن لم يكن قطز من هؤلاء الذين يؤمنون بحـتميـة تلقى الضربة الأولى ولو أن القادة الذين سبـقوه فى العالم الإسلامى قد بـادروا من تلقاء أنفسهم لمجابهـة التتار لتوقف زحفهم وانحنت ظهورهم وانكسرت سيوفهم والتوت أعناقهم.

وها هو التاريخ مـرة أخرى يتكرر كأنه صورة كربـونية فحين انتظر عـبد الناصر الضربـة الأولى من إسرائيل تمكنت منه واحـتلت سيناء وأجـهضت قـواته وبسطت نفوذها حتى قناة السويس.

وحين قرر السادات مباغتة إسرائيل وتلقينها درسا لا ينسى دون أن ينتظر ضربتها أرغم اليهـود على الانسحاب قـسراً من سيناء وإبرام مـعاهدة سلام انصـاعت لها إسرائيل رغم أنفها.

وهكذا تكون الضـربة الأولى لصاحـبها وعلى من يـنتظر وقوعهـا ومن ثم بادر سيف الدين قطز بالاستعداد والتأهب والتحرك لملاقاة التتار حفاظا على تراب مصر وحرصا على استقلالها وحريتها من هنا تقدم سيف الدين قطز طلائع جيشه الجرار

الذى يتألف من مـئات الآلاف من المصريين البـواسل الذين سطروا بدمائهم أروع صفحات التاريخ.

الشاهد أن قطز الذى تحـرك بجيـوشه على أطراف المدن الفلسطينيـة يبحث عن مدينة ملائمة للمواجهـة القادمة مع التتار فيما كان القائد المغـولى «كَتْبُغا» يبحث مع قـواده تطورات الوضع الخطيـر وأهداف جـيش قطز وماذا يقـصـد من وراء هذه التحركات المريبة؟!

من جانبه قـرر كتبغا أن تتحـرك قواته لتتبع جيوش قطز ويبدأ يتـجه نحو الجنوب اللبنانى حتى اجتاز شمال فلسطين وسرعـان ما اقترب من منطقة غرب الجولان ثم اجتاز نهر الأردن وبلغ منطقة الجليل.

فى تلك الأثناء كانت جيـوش قطز قد استقر بها المطاف فى منطقـة تسمى سهل عيـن جالوت وهى تقع بين مـدينتى بيسـان فى ناحيـة الشمـال ونابلس من جـهة الجنوب.

* * *

خطة قطز

حين أبصر سيف الدين قطز سهل عين جالوت أدرك ببصيرته أنها المكان المناسب لإلحاق الهزيمة بجيوش التتار لاسيما وأنه يستطيع نصب الشراك وإعداد الفخاخ عبر أحراشها وأشجارها الكثيفة.

راح قطز يأمر القائد العبقرى ركن الدين بيبرس بتمركز قواته ناحية الشمال وقد تعمد إظهار تلك الفرقة حتى يسيل لها لعاب التتار كواحدة من خططه الخداعية التى اعتمد عليها اعتماداً كليا فى إدارة هذه المعركة الشرسة.

وفى صباح الرابع والعشرين من شهر رمضان عام ٦٥٨ هجرية زحفت جيوش التتار تحت لواء القائد كتبغا الذى أقبل بجبروته حيث إن هولاكو كان قد عاد إلى مدينة فارس.

وقبل أن تندلع الحرب بين الجيشين جاء بعض المسلمين الذين كانوا قد انخرطوا قسرا فى صفوف جيش التتار للعمل طوعا فى جيش قطز حيث إن هؤلاء قد أخبروا قطز بأبرز عناصر الضعف داخل صفوف التتار.

والواقع أن المعلومات التى حملها هؤلاء الرجال قد كان لها أبلغ الأثر فى سير المعركة الحاسمة.

أضف إلى ذلك النيران التى اشتعلت فى صدور المسلمين وأرادت أن تحرق بلهيبها أجساد التتار الذين أبادوا وخربوا وأفسدوا وقد ابتهج قطز لتلك الحماسة التى تعتلج وتسكن صدور جنوده المسلمين الذين أدمت قلوبهم نساء المسلمين وأطفالهم وشيوخهم الذين سقطوا تحت نعال أحذيتهم الثقيلة وسنابك خيولهم السمينة.

فى هذا اليوم الرابع والعشرين اقترب الجيشان من بعضهما وأرخى الليل سدوله ليتـأهب الجميع إلى شـروق شمس العـزة والكرامة والحرية والاسـتقلال والسـيادة للعرب والمسلمين لتنقشع وتغرب شمس الظلم والاستبداد المغولية.

وجاءت صبيـحة الجمعة التى وافقت الخـامس والعشرين من شهر رمـضان لتبدأ الملحمة بين الجيشين فمن كان صاحب الغلبة والكلمة العليا؟!

كان جيش التتار يزحف نحو السهل بصـيحته الشهيرة هوهوهوهوووه.. ظنا منه أنها تكفى كما اعتاد أن تقذف الرعب فى قلوب المسلمين بيد أن ظنه قد خاب هذه المرة حيث إن هؤلاء الجند الذين استـقر الإيمان فى قلوبهم وتاقت أنفسـهم للجهاد واشتـاقت أرواحهم للاستشـهاد ما كانت مـثل هذه الصيحـات الساذجة لترعـبهم وتخيفهم.

بل كانت صرختهم هى التى أثارت الـرعب فى قلوب جند التتار.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.. كأنها كلمة السر.. ومفتاح النصر ودرع الجيش وحصنه المنيع.. لتبدأ المعركة الكبرى ويلتقى الجيشان وجها لوجه..

لقد استبـدت الدهشة وارتسمت جلية على وجه القـائد كتبغا كان لافـتا للانتباه روعة الجيش المصـرى وحسن هندامه ودقة نظامـه وترتيب صفوفه وحـداثة أسلحته وقوة خيـوله.. إنها نفس الدهشة التى اجـتاحت السلطان محمـد بن خوارزم حين رأى بعينه لأول مـرة جند التتار فى ملابسـهم الأنيقة وسيـوفهم اللامعة وخـيولهم الرشيقة وقد قال قولته «لم أر مثل هؤلاء الجند من قبل».

وهكذا تدور الأيام لتعترى الدهشة ملامح القـائد المغولى كانت الفرق الإسلامية تتوافد واحدة بعد الأخـرى أمام جند التتار فيما اعتزم قـطز إخفاء العديد من قواته خلف التلال لخداع العدو وتضليله حتى يتمكن من مباغتته لكسر عنقه.

كانت الخطة الخداعية تعتمد على أن يتوهم التتار أن أعداد الجيش المصرى ضئيلة ومن ثم يمكن اصطيادها بأقل جهد ممكن وهو الطعم الذى ابتلعه التتار.

بالطبع أغرى هذا العدد القليل القائد التتارى الـذى أصدر أوامره باجتياح الجيش الإسلامى المصرى الباسل.

وعندما اقتربـت حجافل التتار تصدت لهـا قوات فرقة بيبرس واحتـدمت بينهما المعركة ساعات طويلة شهـدت أروع وأعظم البطولات والتضحيات وارتوت الأرض بدماء المسلمين الطاهرة وقد أوشك القـائد سيف الدين قطز على أن يخوض غمار المعركة حيث أوشك الوقت على إتمام بقية الخطة المرسومة.

كانت الخطة تقضى بسحب جيش التـتار إلى قلب سهل عين جالوت وهى نفس الخطة التى كان يعتمـد عليها هولاكو فى سحب جيـوش الأعداء خارج المدن حتى يتسنى له الانقضاض عليهم!!

تظاهر المسلمـون وفق مـا هو مـرسـوم أنهم قد انـهزمـوا وأن الجنود بصـدد الانسحاب التدريجى وهو الخدعة التى وقع فى شباكها التتار حيث عاد بيبرس بقواته إلى الوراء متظاهرا بعشقه الانسحاب وقسوة الهزيمة.

كان التتار فى ذلك الوقت قـد تملكهم الغرور واستولى عليهم الكبر وراح كـتبغا يتقـدم ويزحف نحو جيش المسلمين للإجـهاز عليه وتصفـيته كمـا هو مألوف لدى التتار.

مع مرور الوقت كان جـيش التتار قد دلف بأكمله إلى قلب سـهل عين جالوت فى انتظار اللحظة المناسبة لذبح الجيش الإسلامى فى تلك اللحظة الحاسمة والتاريخية أطلق قطز إشـارة البدء فى تفـعيل ما تبـقى من الخطة التى تقـضى بفرض حـصار حديدى على التتار!!!

يا الله. . . يا الله. . . أخيرا حانت اللحظة ونجحت الخطة وسقط المغول فى شباك قطز. . التتار فى قلب الحصار الذى اعتادوا طوال حروبهم على فرضه. . الآن أصبحوا بداخله كالجرذان ترتعد فرائصهم. . هنيئاً لك يا قطز. . . ما أشجعك . . سلمت يداك. . أعزك الله يا من ثأرت لمن أهلكوا الزرع وحرقوا الضرع واغتصبوا النساء وذبحوا الأطفال وأذلوا الرجال. .

أخيرا. . التتار فى قلب الحصار.

واحتدمت المعركة واشتعلت نيرانها وتقاذفت الحمم وأدرك التتار أن الموت بات قاب قوسين أو أدنى وأن الهزيمة الساحقة الماحقة تقترب منهم وهم الذين اعتادوا على الانتصارات طوال تاريخهم.

فى خضم تلك المعركة الرهيبة أدرك قطز أنه ينبغى أن يكون بين جنوده حيث باتت شمس التتار تميل إلى الغروب وإن هى إلا ساعة لتأتى ساعة المغيب.

صاح قطز بأعلى صوته. . وا إسلاماه. . وا إسلاماه. . وكان قد أمد جيشه بعتاد وسلاح أشعل حماستهم وثورتهم وألهب غضبهم حتى باتت سيوف المسلمين تقطف رقاب التتار وتحصد أرواحهم وكادت الهزيمة تلحق بهم وبينما كانت المعركة تدور رحاها بين الفريقين تسلل أحد قادة المسلمين البواسل نحو القائد كتبغا وقد قام بالانفضاض عليه ليقطع رقبته بسيفه البتار فقد خرجت رأسه على الأرض لتسبح فى بحر من الدماء لتندثر فى تلك اللحظة مهابة التتار وتسقط عظمتهم بسقوط رأس الأفعى كتبغا وما أ ن شاهد جند التتار ما جرى لقائدهم حتى راح الكل يبحث عن مأمن أو مهرب أو ملجأ فقد استولى الرعب على قلوبهم وخارت قواهم وصدأت سيوفهم وتكسرت النصال وتجمدت الخيول كأنها قد غرست بحوافرها فى الأوحال. .

يا الله.. لقد دارت الدائرة على الهمج والسفاحين وها هم قد راح أغلبهم يلوذ كالجرذان بالهرب لينجو بنفسه.

لو أن السلطان محمد الخوارزمى قد اعتمر قلبه بالإيمان وأقبل على الجهاد كما أقبل على الدنيا وأعرض عن زينتها كما أعرض عن الموت لكان له شأن آخر ولعاد التتار يتجرعون كئوس الهوان إلى بلادهم.

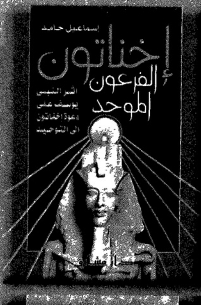
الشاهد أن التتار ولوا الأدبار وأطلقوا خيولهم تصارع الريح يلتمسون طوق النجاة وجيوش قطز تتعقبهم أينما ذهبوا حتى استقرت خيولهم فى مدينة بيسان لتبدأ حلقات معركة عنيفة كانت لصالح المسلمين بعد أن أبلوا خلالها بلاءً حسناً حيث استطاع هذا الجيش العظيم أن يحصد جميع أرواح جند التتار ويقضى عليهم وينهى شرورهم وآثامهم وفسادهم لتغرب شمس التتار إلى الأبد.

* * *

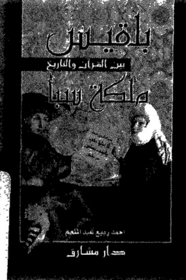
الفهرس

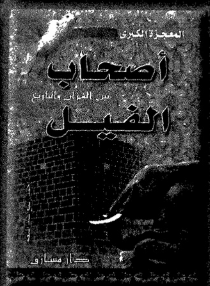
الموضوع	صفحة

من إصدارات دار مشارق









دار مشارق